الدولة الأيوبية والصليبيون

دكتورة
اسمت غنيم
جامعة الاسكندرية

١٩٩٠

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

الدولة الأيوبية والصليبيون

دكتورة
اسمت غنيم
جامعة الاسكندرية

١٩٩٠

دار المعرفة الجامعية

المحتوى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد لعبت الدولة الأيوبية دوراً هاماً وخطيراً في تاريخ الشرق الادنى الإسلامى ، وكان هذا الدور أكثر مايكون وضوحاً في صراعها مع العدو الصليبى ، الذى جثم على أنفاس الشرق الأدنى الاسلامى عند نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، والذى استمر نشاطه المعادى للمسلمين في هذه المنطقة حتى تم طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في عام ١٢٩١ م .

على أنه لايمكن أن نجزم بانتهاء الحركة الصليبية عند هذا التاريخ ، ولكن يمكن القول أن النشاط الصليبى استمر في صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد اتخذ الصليبيون لهم ميادين مختلفة لممارسة نشاطهم سواء في المشرق أو المغرب الاسلاميين .

ولن نتعرض لتفاصيل تتعلق باحوال المشرق الاسلامى عند بداية الحركة الصليبية أى عند نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، ولا للانقسامات السياسية والمذهبية التى سادت في انحائه ، وأتاحت الفرصة لهؤلاء المستعمرين لان ينفذوا اليه ويستقروا في أراضيه ممثلين لأول حركة استعمار قام بها الغرب الاوروبى لبلاد الشرق الأدنى الاسلامى . لأن هناك الكثير من الكتب التى تعرضت لهذه الظروف ، وللابعاد المختلفة للحركة الصليبية بإفاضة ، وهى دراسات ذات قيمة علمية كبيرة ، أفادت الكثير من الباحثين فى هذه الموضوعات وأنارت أمامهم سبيل المعرفة ، وبصفة خاصة أذكر من بين هذه الكتب مؤلفات أستاذىّ الكبيرين ، الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، والاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف .

أما هذا الكتاب ، فهو عرض عام ومبسط للدور الذى اضطلعت به الدولة الايوبية في الجهاد ضد الصليبيين . الذين لم يقنعوا بالاستقرار في أراضى الشام وفلسطين . بل اتجهت اطماعهم نحو مصر أيضاً . بهدف ضمها واحتوائها

بامكانياتها البشريه والماديه بعد ان ضمت مناطق نفوذهم

ولتحقيق هذا الهدف تم التخطيط والتمهيد لحملتين صليبيتين اتجهتا ضد مصر من أجل الاستيلاء عليها وكان على رأس حملتهم الثانية على مصر (الحملة الصليبية السابعة) ملك فرنسا لويس التاسع الذى تم أسره وقضى فترة الأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة . وقد باءت الحملتان بالفشل الذريع وكان فشلهما هذا جزاءاً طبيعياً لما اقترفت أيديهم وتطاولت إليه أحلامهم

وارجو أن تفيد هذه الدراسة بناتنا الطالبات وأبناءنا الطلبه ، وتساعدهم جميعاً على فهم طبيعه الدور العظيم الذى لعبته الدوله الايوبيه في النضال ضد الصليبيين ، في مرحله تعتبر من أهم مراحل تاريخ مصر والشرق الأدنى الاسلامي في العصور الوسطى .

والله الموفق

عصمت غنيم

لوزان

٧ يناير ١٩٨٧

الفصل الأول

بداية ظهور صلاح الدين الأيوبي

السلطان صلاح الدين الايوبي

يرجع أصل صلاح الدين الايوبى الى الاكراد ، وقد هاجر والده نجم الدين أيوب بن شادى وعمه أسد الدين شيركوه بن شادى من بلدة دفين Divin في أرمينيا ، وقد انخرطا في خدمة عماد الدين زنكى أتابك الموصل .

ويعتبر صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الايوبية وأشهر سلاطينها ، وقد حاز صلاح الدين شهرته الكبيرة هذه في المشرق الاسلامى والغرب الاوروبى ، وعند المسلمين والمسيحيين على حد سواء نظراً للدور الكبير الذى لعبه في الجهاد ضد الصليبيين ، وقد كللت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصاره الساحق عليهم في معركة حطين ١١٨٧

والواقع أن تاريخ الأيوبيين في مصر والشام يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالحروب الصليبية ، بل أن ظهور صلاح الدين نفسه على مسرح الأحداث السياسية ارتبط بالصراع الذى قام بين سيده نور الدين محمود والصليبيين حول مصر .

ذلك أن الدولة الفاطمية في مصر أصبحت تعانى في أواخر أيامها من الضعف والاضمحلال السياسى . فاصبح الخليفة الفاطمى ألعوبة في يد الوزراء يحركونها كيفما شاؤا ، بل أكثر من ذلك أصبح الوزير يستعرض الخلفاء استعراض الغنم ليختار منهم أضعفهم وأصغرهم سناً ليكون آداة طيعة في يده ، مثل الوزير طلائع بن رزيك الذى كان أرمنى الأصل ، وسيطر على الوزارة لمدة سبع سنوات (١١٥٤ — ١١٦١م) ، فعندما أخذ أهالى القاهرة يهللون للخليفة الجديد ، قال ابن رزيك « كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا انى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم » .

وقد تطور التنافس على الوزارة في مصر عند نهاية العصر الفاطمى الى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء الى بسط سلطانهم عليها . فقد انفرد بالسلطه اوالي الصعيد ويدعى شاور، بعد أن تخلص من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك في المحرم ٥٥٨ هـ على أن أحد قادة جيش ويدعى ضرغام ثار عليه وتقلد الوزارة ،

فاضطر شاور الى الالتجاء الى نور الدين محمود صاحب دمشق – وهو ابن عماد الدين زنكي صاحب أول حركة جهاد ضد الصليبيين ،والذى تم له استرداد الرها وهي مركز أول أمارة أسسها الصليبيون في الوطن الاسلامى – ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه ، ووعد بأن يتنازل له عن ثلث خراج مصر اذا عاونه في التغلب على ضرغام وانتزع الوزارة منه . فتردد نور الدين محمود في بداية الأمر ثم لم يلبث أن وافق بعد أن قلب الأمر وادرك مدى الضعف الذى صارت عليه الخلافة الفاطمية ، واقتنع بضرورة اقتناص الفرصة وعدم تركها تفلت من بين يديه ، فأعانه بحملة اسند قيادتها الى أسد الدين شيركوه ، وقد نجحت هذه الحملة في التصدى لضرغام والتغلب عليه ، وتمكنت من اعادة شاور لمنصبه في الوزارة في رجب ٥٥٩ هـ .

لكن الخيانة التى اتصف بها شاور لم تلبث أن ظهرت بوضوح فلم يفى بما تعهد به لنور الدين محمود ، وأرسل الى أسد الدين شيركوه يطلب منه مغادرة البلاد المصرية والعودة الى الشام . بل أكثر من ذلك أرسل الى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبي يطلب مساعدته ضد نور الدين محمود وأوضح له مدى الخطر الذى سيلحق بالصليبيين اذا استولى نور الدين محمود على مصر . لذلك فقد سارع الملك عمورى الى تلبية طلبه وخرج على رأس جيشه خاصة بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال ، ووصل الى مصر حيث اشترك معه شاور بجيشه في حصار شيركوه في مدينة بلبيس ، وأخيراً تم الاتفاق بين هذه الأطراف على أن يغادر كل من شيركوه وعمورى أرض مصر ، وكان ذلك في أواخر عام ١١٦٤ م .

وقد أدت هذه الظروف الى لفت أنظار كل من الصليبيين ونور الدين محمود الى ضعف مصر وازداد طمعهم فيها ، ولم يلبث الخليفة الفاطمي العاضد بالله أن أرسل الى نور الدين محمود يخبره بأن شاور قد استبد بالأمور وكثر ظلمه للناس وسفكه للدماء . أضف الى ذلك أن نور الدين محمود كان يكن الكراهية لشاور بعد أن غدر بأسد الدين شيركوه واستعان عليه بالصليبيين .

فانفذ نور الدين محمود حملته الثانية الى مصر وغادرت دمشق في يناير ١١٦٧ في طريقها الى مصر ، وقد صار بصحبة شيركوه بعض الامراء وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة .

وقد عاد شاور من جديد واستنجد بالملك عمورى ، الذى خرج بجيوشه على وجه السرعة وانضم اليه جيش شاور ، فتقدم شيركوه الى الصعيد فتبعه الصليبيون والتقى الفريقان في مكان يعرف باسم البابين على مقربة من مدينة المنيا ، فكان النصر حليف شيركوه الذى رأى بعد ذلك أن يسير الى الاسكندرية ، فدخلها من غير مقاومة تذكر وعين ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها .

عادت القوات الصليبية ومعها قوات شاور الى القاهرة بعد هزيمتهم في موقعة البابين ، ثم ولوا وجوههم شطر الاسكندرية حيث قاموا بحصارها براً ، في الوقت الذى كان اسطول الصليبيين يحاصرها براً ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار ، فاسرع أسد الدين شيركوه الى نجدته . وقد أرسل اليه الصليبيون وشاور يطلبون الصلح فأجابهم الى طلبه واشترط ألا يقيم الصليبيون في البلاد المصرية ، ثم عادت قوات نور الدين محمود الى دمشق .

على أن القوات الصليبية لم تغادر كلها مصر تنفيذاً لهذا الصلح ، بل عقدت مع شاور معاهدة ، كان من أهم شروطها « أن يكون لهم بالقاهرة شحنة — وهو نائب السلطان في ضبط البلد وتصريف شئونها — وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليهم » . كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر .

وقد علق المؤرخ أبو شامة على هذه الشروط بقوله : « هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد — صاحب مصر — فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، قد حكم عليه شاور وصحبه ، وعاد الفرنج الى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة » .

على أن شاور بدأ يتخوف عندما وجد أن مساعدة الصليبيين له انقلبت الى حماية ، هذا الى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى على شاور – وهى مائة ألف دينار – أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، في الوقت الذى نضبت فيه مواردها . أضف الى ذلك أن وجود (شحنة) صليبى في القاهرة يشارك في شئون الحكم ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج المسلمون . وهكذا لم يجد شاور أمام شعور الاستياء العام فى القاهرة ، الا أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فما كان منه ألا أن اتصل بنور الدين محمود يطلب حمايته وتخليصه من الحماية الصليبية .

لكنَ عمورى الأول ملك بيت المقدس عندما علم بتغير سياسة شاور تجاه الصليبيين عزم على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها قبل أن تصل اليها قوات نور الدين ، وبالفعل فانه خرج على رأس قواته في أكتوبر ١١٦٨ ، فوصل بلبيس في أول نوفمبر ١١٦٨ ، وقد اغلقت المدينة أبوابها في وجهه ، ولكنه نجح في اقتحامها واتخذ طريقه الى القاهرة بعد أن أساء معاملة الأهالى في بلبيس وقتل منهم اعداداً كبيرة كما احرق وخرب أكثر البلد . وقد وصل عمورى بالقرب من القاهرة وعسكر جنوبى الفسطاط ، فاحرق شاور الفسطاط بعد أن أنذر أهلها فخرجوا جميعاً ، وقد نقل عمورى معسكره بعد حريق الفسطاط أمام القاهرة ، ولكن القاهرة قاومت الجيوش الصليبية مقاومة باسلة .

هذا في الوقت الذى اخترق فيه شيركوه الصحراء ووصل بجيوشه ومعه صلاح الدين الايوبى الى القاهرة ، حيث التف حوله الاهالى ، بوصفه المدافع عنهم وعن الاسلام . وقد تم القبض على شاور وقتل ، وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة في أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر لأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من سند يؤيد وجودهم داخل مصر ، فانسحبوا « عائدين الى بلادهم بخفى حنين ، خايبين مما أملوه » .

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى في البلاد بعد أن انتهى عهد شاور ، فاتخذه الخليفة العاضد الفاطمى وزيراً له ولقبه بالملك المنصور أمير

الجيوش ، وتقلده تدبير أمور الدولة ، فجاء في سجل تعيينه وزيراً : « وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته ، وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة امامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين .. » ثم يوصى الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه بأمر العساكر « أحمرهم وأسودهم وأقربهم وأبعدهم ، وفارسهم وراجلهم ، ورامحهم ، ونابلهم ، بتوفير الأقطاع ، وادرار النفقات .. الخ » وكذلك يوصيه بالرعايا فيقول : « والرعايا فقد علمت مانالهم من اجحاف الجبايات ، واسراف الجمايات ، وتوالى عليهم من ضروب النكايات فاعمر أوطانهم التى أخربها الجور والأذى ، وانف عن مواردهم الكدر والقذى ، واحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم وخفف الوطأة ما استطعت عنهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا .. » .

ومن هذا يبدو واضحاً ما قاساه الشعب المصرى من متاعب حقيقية في السنوات القليلة التى شهدت الصراع العنيف بين قوى الصليبيين وقوى نور الدين محمود في سبيل الاستيلاء على مصر ، والتى انتهت بهزيمة الصليبيين وانسحابهم وقتل شاور وانتصار أسد الدين شيركوه ثم توليه الوزارة في مصر .

وقد نجح أسد الدين شيركوه في الفترة القصيرة التى قضاها في الوزارة أن يقبض على زمام الأمور في البلاد ، كما وزع الاقطاعات على عساكره ، وأعاد أهالى الفسطاط الى بلدهم ، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة ، ثم توفى بعد أن ظل في منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر ، فتنازع أمراء نور الدين محمود الذين كانوا بمصر في طلب الرياسة والوزارة ، لكن العاضد اراد تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه بأمل أن يتمكن الخليفة من السيطرة عليه ، ولكن ستظهر الاحداث التالية خيبة ظن الخليفة . وقد جاء في سجل تولية الخليفة العاضد الوزارة لصلاح الدين ان المبررات التى دعته لاختيار صلاح الدين مكانته عند عمه شيركوه ، وشجاعته الفائقة في الحروب . وختم السجل بالوصية المعتادة ، فهو يوصى صلاح الدين بأولياء أمير المؤمنين «وأنصاره الميامين من الامراء المطوقين والاعيان المعصبين والأماثل والأجناد أجمعين » ويقصد بهؤلاء جميعاً امراء الجيش واجناده من المغاربة ، أو كما يقول

النص في خطابه لصلاح الدين : « فهم أنصاره غربا كما ان عسكرك أنصاره شرقاً » . وهذا يوضح الحالة التى كان عليها الجيش في الدولة الفاطمية ، فقد اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران ، عنصر المغاربة أولياء الدولة القدامى وعنصر المشارقة جنود صلاح الدين وأعوانه .

ويوصى السجل صلاح الدين بالرعايا الذين هم : « ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعه لديك ، فاقبض عنهم الأيدي وابسط بالعدل فيهم يديك » .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفاً غريباً ومزدوجاً ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد بالله الفاطمى الشيعى ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى ، فهو موزع الولاء ومع ذلك كان يتبع في سياسته أزاء الرجلين الحكمة والتؤده .

على أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، ثم إقامة الخطبة للخليفة العباسى ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته وكرهه للشيعة ، وبرغبته في اجابة الخليفة العباسى الى طلبه ، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم له الخطبة في مصر ، ولكن صلاح الدين كان أعلم من نور الدين محمود باحوال مصر . لهذا فقد آثر صلاح الدين التمهل ، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة ، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى أن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن يحج هؤلاء في الثورة عليه ، يقول ابن واصل في كتابه « مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب » : « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وانه لم يبق لهم منعه كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ، ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب لخوفه من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك لميلهم الى العلوية ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل به يلزمه الزاماً لا فسحه فيه » .

وقد بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فابعد هؤلاء القواد عن القاهرة ، واستولى على اقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم واخلاصهم له ثم ارسل الى نور الدين يستأذنه في أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فارسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وأخذ صلاح الدين كذلك في تعميم حركة انشاء المدارس في مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الاتابكة . هو محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريسه ، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي انشأت في الفساط لتدريس المذهب الشافعي ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية .

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضياً للقضاة ، فجعل القضاة في سائر الديار المصرية شافعية ، ويقول المؤرخ ابن واصل معلقاً على حركة انشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعي الاسماعيلي الى المذهب الشافعي : « فاشتهر مذهب الشافعية ، واندثر مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » .

وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن لقي معارضة شديدة من قبل بعض الفئات لاسيما قادة الجيش الفاطمي الذين اتخذوا لهم زعيماً من بين طواشية القصر ، وهو مؤتمن الخلافة وساد السخط بينهم على اساس ان صلاح الدين يعمل على اضعاف مركز الخليفة ويحاول ان ينفرد بالسلطان ، وكرهوا ان يخضعوا

لسلطان صلاح الدين ، وما حدث من القاء القبض على عدد كبير من رجال القصر لم يترك عندهم أى أثر للشك في نوايا الوزير الجديد صلاح الدين . وكان مؤتمن الخلافة موطن ثقة الخليفة العاضد ، ولم يتردد في أن يستنجد بقوة الصليبيين مثلما فعل شاور من قبل .

غير أن صلاح الدين أمر بقتل زعيم الثائرين في اغسطس ١١٦٩ م . وترتب على ذلك أن تظاهر عدد كبير من الرعاع والجند عند دار الوزارة بالقاهرة ، فبادر صلاح الدين بحشد قواته التى جعل عليها أخاه توارن شاه ، ووقع بين الترك والسودان معارك دامية في الشوارع ، وانتهت بهزيمة المتظاهرين ومطاردتهم في شوارع القاهرة ، واشعال النيران في الدور التى ينزلها السودان . ثم أوقف صلاح الدين القتل وأخرج من القاهرة عدد كبير منهم ، وما تبقى الزمهم بعدم مغادرة دورهم ، وعدم الظهور بشوارع القاهرة . وترتب على القضاء على هذه الفتنة أن هيبة الفاطميين وسلطانهم أخذ في الزوال بسبب سوء تصرف الخليفة ، فما لحق السودان من القمع الشديد أودى بقوة الخليفة الفاطمي .

ولما تم لصلاح الدين ذلك ، جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في أمر قطع الخطبة فترددوا كثيراً ، وأخيراً تقدم فقيه يدعى الامير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة . وفي يوم الجمعة الاول من المحرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاضد ، وانما دعا للخليفة العباس المستضىء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية ، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسى في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعاً وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية ، أما الخليفة العاضد الفاطمى ، فانه كان مريضاً وتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام (١٣ سبتمبر ١١٧١) دون أن يعلم بزوال دولته لأن صلاح الدين منع ابلاغه بهذا الأمر .

وما وقع من الحوادث بين سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) منذ سقوط الخلافة الفاطمية ، وسنة ١١٧٤ (٥٧٠ هـ) وهى السنة التى توفى فيها نور الدين محمود ، حددت مستقبل صلاح الدين في مصر وعلاقته بالدولة النورية

وماتطلع اليه من المضيّ في توحيد الجبهة الاسلامية ومهاجمة الصليبيين ، يضاف لذلك ما تعرضت له مصر في أثناء هذه الفترة من الفتن والمؤامرات التي دأب أنصار الفاطميين على اثارتها .

استطاع صلاح الدين ان يطارد بقايا السودان الذين خرجوا من القاهرة ، ولجأوا الى النوبة فتحالفوا مع النوبيين سنة ١١٧٢ وأغاروا على أطراف مصر الجنوبية ، ولم يكن قصد هؤلاء المغيرين سوى النهب أولاً ، ثم الانتقام من صلاح الدين لازالته الدولة الفاطمية وشدته في قمعهم وطردهم من مصر ، على أن صلاح الدين بفضل جهود اخيه توران شاه شتت شملهم ، وأمر بوضع حامية كردية في ابريم .

وفي سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) جرى تدبير مؤامرة شاملة الغرض منها اعادة الحكم الفاطمي الى مصر ، وتضمنت هذه المؤامرة ، التي يعتبر الشاعر عمارة اليمني من أكبر زعمائها استغلال توزيع قوات صلاح الدين في جهات عديدة ، والاتصال بسائر العناصر المناهضة لصلاح الدين في داخل البلاد ، والتحالف مع اعدائه خارج البلاد ، فضلا عن الاستعداد لإعلان الخلافة الفاطمية في مصر من جديد .

وتفصيل هذه المؤامرة أن الشاعر عمارة اليمني ، الذي أمضى شطراً كبيراً من حياته في القصر الفاطمي ، وعاش على سخاء وكرم الوزراء الفاطميين ، حاول أن يتقرب الى السادة الجدد (الايوبيين) لاسيما توران شاه فحرضه على فتح بلاد اليمن لابعاده عن مسرح الاحداث التالية لما اشتهر به من العنف والشدة . ووافق ذلك هوى عند توران شاه لاسيما ان صلاح الدين منذ أن استقر بمصر ظل هو وأهله خائفين من نور الدين أن يدخل مصر وينتزعها منهم ، فرأوا أن يقيموا لهم مملكة يلجأون اليها ، ووجدوا ما يبرر ذلك عند نور الدين من حيث الحرص على اقامة الخطبة العباسية ببلاد اليمن . واستنجد المتآمرون بالصليبيين في الشام ، والنورمان في صقلية ، وكتبوا الى زعيم الحشيشية بالشام يطلبون اليه أن يرسل من يقاتل صلاح الدين . وانطوت خطتهم على أن الصليبيين اذا قصدوا مصر ، وخرج اليهم صلاح الدين أعلنوا

الثورة بالقاهرة ، واعادوا الخلافة الفاطمية ، واشار اليهم من مالأهم من عسكره ، فلايستطيع صلاح الدين الصمود للصليبيين ، أما اذا بقى صلاح الدين بالقاهرة وأرسل عساكره لمواجهة الصليبيين ، ففى استطاعتهم ان يقبضوا عليه ، لأنه ليس لديه من العساكر ما يحميه ، وعلم صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة ، عن طريق الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذى اشركه معهم المتآمرون واطلعوه على سرهم ، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولًا فأول . وقد تمكن صلاح الدين حين تأكد من قيام هذه المؤامرة بالفعل ، فألقى القبض على زعماء المؤامرة وجرى الاحتياط على افراد الاسرة الفاطمية ، ثم أمر بصلب عمارة وباقى المتآمرين ، وصادر أموال الفاطميين وأرسل جانباً كبيراً منها الى نور الدين محمود ليستعين بها على الجهاد .

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة في القاهرة ، وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، حتى توفى في بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل (١١ يوليه ١١٧٤) . ولم يلبث أن أرسل النورمان بصقلية اسطولهم الذى وصل الى ميناء مدينة الاسكندرية فى أواخر يوليو ١١٧٤ .

وقد تمكن هذا الاسطول من انزال بعض قواته على الشاطىء كما استطاع تدمير بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الاسكندرية ، وقد حاول النورمان اقتحام الاسكندرية وشددوا هجماتهم عليها ، ولكن الاهالى ثبتوا لهم ثبوتاً عظيماً واحرقوا بعض سفنهم في الوقت الذى وصل الى الاسكندرية صلاح الدين بجيشه فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وانزل بهم الهزيمة ، فاضطر النورمان الى مغادرة ميناء الاسكندرية والعودة الى بلادهم خائبين خاسرين .

محاولة صلاح الدين الاستقلال بمصر :

من الواضح أن صلاح الدين بعد ان تم له انزال الهزائم المتتالية بالمتآمرين لاعادة الخلافة الفاطمية ، لم يعد يفكر في أية أخطار تنجم عن اعادة الدولة الفاطمية وانما اشتد قلقه من تصرفات نور الدين محمود . ذلك أن نور الدين أراد أن يحكم قبضته على مصر ، فارسل اليها في عام ١١٧٣ موفق الدين خالد

القيسراني متولى ديوان الاستيفاء يطلب منه أوراقاً بخراج مصر ، بعد أن حاول صلاح الدين الاعتذار عن عدم التعاون الحربي معه ضد الصليبيين ، لما تعرضت له مصر من اخطار خارجية ، وما جرى بها من تدبير المؤامرات مما يتطلب منه الالتفات والاهتمام ، والواقع ان السبب في امتناع صلاح الدين عن التعاون مع نور الدين ، ما لمسه صلاح الدين من حرص نور الدين على انتزاع مصر منه ، والاستعداد لغزوها ، فعلى الرغم من أن صلاح الدين وافراد أسرته أعلنوا ولاءهم لنور الدين ، وارسلوا له بالهدايا ، فان نور الدين انتهز فرصة اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً على مصر ، فارسل القيسراني ليتحقق من أحوال البلاد ، ويتحرى بالتفصيل المركز المالي بها ، ويحدد ما ينبغي ان تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنور الدين ، ومن الواضح ان نور الدين طلب الى وزيره أن يتعرف الى نوايا صلاح الدين وميوله .

واستطاع صلاح الدين أن يقنع القيسراني بحسن تصرفه ، وأخذ في جمع الاموال التي سوف يرسلها الى نور الدين ، وجعل للقيسراني من الاموال ما لم يكن يترقبه وحمله من الهدايا ما تفوق في الفخامة والابهة ما سبق أن بعث به . وقد خرج القيسراني من مصر محملاً بكل هذا في طريقه الى نور الدين محمود بالشام ، ولكنه علم وهو في الطريق بوفاة نور الدين محمود في ١٥ مايو ١١٧٤ .

وهكذا انقذت الاقدار صلاح الدين من محاولات نور الدين المستمرة لاحكام قبضته على مصر وابعاد صلاح الدين عنها . وما وقع من الاحداث بعد وفاة نور الدين جعل صلاح الدين يقترب من تحقيق الهدف الذى سعى اليه دائماً وهو الاستقلال بمصر والابتعاد بها عن سلطة البيت الزنكي . فقد خلف نور الدين على الحكم ابنه الصالح اسماعيل ، الذى كان طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وادرك صلاح الدين انه قد حان الوقت للانفراد بحكم مصر . ولم يمانع صلاح الدين في بادىء الأمر من ان يذكر اسم هذا الامير الصغير في خطبة الجمعة وان يسك النقود باسمه . كما انه ادرك أن عليه ان يقوم بعمل خطير ، وهو الاستيلاء على دمشق من أجل توحيد الجبهة الاسلامية

وتطويق الصليبيين . على أن تحقيق هذا الهدف كان يتوقف على موقفه من الصالح اسماعيل .

وقد التزم صلاح الدين طريق الحكمة والروّية حتى يحقق غرضه ، كما أنه حرص على أن يسير في ذلك على مراحل وخطوات . ذلك أن الصالح اسماعيل قد انتقل من دمشق للاقامة بحلب ، وقد اتاح ذلك لصلاح الدين دخول دمشق في اكتوبر ١١٧٤ وقد أبطل صلاح الدين كل المكوس التى جرى استحداثها بعد نور الدين في دمشق ، ثم أعلن أنه لم يقدم الا ليقوم على تربية الصالح اسماعيل ، وانه لم يقصد الا ان يتولى شئون المملكة باسم الامير الزنكى . غير أن ما حدث من سيطرة بعض أمراء نور الدين على الصالح اسماعيل وشدة احنقهم على صلاح الدين ، والاستنجاد بقوات الموصل ، والتماس المساعدة من الصليبيين ، جعل صلاح الدين يتخذ من الاساليب والوسائل ما يبطل هذه الدسائس ، ويوقف مساعدة الصليبيين ويحقق غرضه وقد لجأ صلاح الدين الى استمالة بعض الامراء النوريين وبذل الاقطاعات لهم وتعيينهم في وظائف رئيسية بالشام . وبفضل ما حرص عليه من اقامة العلاقات الطيبة مع الخليفة العباسى ، يدل على ذلك ماتردد فى رسائله الى الخليفة المستضىء من الاشارة الى جهوده في القضاء على الدولة الفاطمية واعادة المذهب السنى بمصر واليمن والى حرصه على جهاد الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين ، وأظهر مالجأ اليه خصومه من الاستعانة بالصليبيين والباطنين اعداء الاسلام .

وقد احرز صلاح الدين في ١٣ ابريل ١١٧٥ انتصاراً حاسماً على جيوش الصالح اسماعيل قرب حماه . وترتب على ذلك أن أمر صلاح الدين بقطع الخطبة باسم الصالح اسماعيل ، وتقرر عقد صلح بينهما في يولية ١١٧٦ ، اعترف فيه الامير الزنكى لصلاح الدين بكل مااستولى عليه من البلاد ، وماهو جار تحت حكمه من جنوب الشام الى حماة ، وتعهد صلاح الدين بمساعدة الصالح اذا هاجمه عدو ، ولم يسع الخليفة العباسى الا أن يمنح صلاح الدين تقليداً بالسلطنة ببلاد مصر والشام .

وهكذا تم لصلاح الدين ماأراد وماعمل من أجله سنين طويلة ، وقد ساعدته الأقدار بوفاة نور الدين محمود في تلك الآونه مما كان له أبعد الأثر في تمكين صلاح الدين من تحقيق اهدافه والاستقلال بمصر وما تحت يديه من بلاد ، هذا الأمر الذى كان من العسير بل المستحيل أن يحققه صلاح الدين في حياة نور الدين محمود .

الفصل الثانى

نصر حطين

تجدر الاشارة الى ان صلاح الدين لم يغفل أمر الصليبيين أثناء انصرافه الى معالجة موقفه مع نور الدين وابنه الصالح اسماعيل . على أن ماقام به صلاح الدين من اجراءات ضد الصليبيين يصح تقسيمها الى مرحلتين متميزتين .

ففى المرحلة الأولى لم يفكر السلطان صلاح الدين في القيام بعمليات حربية واسعة النطاق مثل المرحلة الثانية التى بدأها بعد توحيد مصر والشام . فحملاته الأولى وجهها الى أرض الصليبيين المحصورة بين الأراضى الاسلامية والتى تعترض طريق المواصلات بين مصر والشام . وماوقع بين صلاح الدين والصليبيين من اشتباكات حتى سنة ١١٨٠ وماتخلل هذه الفترة بين ١١٧٤ - ١١٨٠ من مهادنة لم تؤد الى تغيير في الاوضاع الاقليمية ، غير أن صلاح الدين أفاد من هذه الحروب في أمور عديدة ، فبالاضافة الى ماأحرزه من انتصارات على الجيوش الصليبية في مواضع عديدة ، وتدمير ماأقاموه من حصون لاسيما حصن بيت الاحزان بين دمشق وطبرية ، وماترتب على ذلك من وقوع اسرى عديدين في يده ، ورد الاسطول الصليبي الذى قدم الى صقلية وهاجم الاسكندرية ، فانه عمد الى تجديد استحكامات دمشق ، وتهيأت له الفرصة بعقد هدنة عام ١١٨٠ بينه وبين الصليبيين لأن يواصل تقوية الاستحكامات . فمن ذلك تقوية الجسر المؤلف من السفن والذى يصل بين البرجين اللذين يتحكمان في دمياط ، وتشييد قلعة في تنيس ، وعمارة الاستحكامات في الاسكندرية ، وتلى ذلك قيامه بتفقد هذه المنشآت الحربية ، يضاف لذلك اهتمامه بالاسطول والبحرية فأفرد له ديواناً خاصاً به .

وقد توجت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصار حطين أما العوامل التى مهدت لهذه المعركة التاريخية الهامة فقد كانت ترجع في المقام الاول الى تصرفات أحد الفرسان الصليبيين المعروف بالطيش والتهور والذى اطلق عليه المؤرخون الغربيون انفسهم اسم (الفارس اللص) وهذا الفارس هو رينودى شاتيون الذى عرف لدى المؤرخين المسلمين باسم (ارناط) .

وقد لعب رينو هذا دوراً بارزاً في الصراع بين الصليبيين وصلاح الدين وجر بتصرفاته الطائشة على الصليبيين الكثير من المتاعب التى كانوا في غنى

عنها . وكان رينو قد تزوج من وريثه صاحب الأردن وتدعى اتنيت دى ميلى طمعاً في اقطاعها الذى ورثته عن ابيها وهو الأردن وحصن الكرك والشوبك ، وقد امتاز هذان الحصنان بموقعهما الهام على طريق القوافل الذاهبة الى الاراضى الحجازية ، وفي نفس الوقت القوافل المتنقلة بين شطرى مملكة صلاح الدين في مصر والشام . وكان رينو بطبيعة الحال يجنى ثروات طائلة من المكوس التى يفرضها على القوافل التى تعبر بحصنيه ، ولكن هذا الفارس لم يقنع بذلك وانما أعماه الجشع المادى عن ادراك خطورة تصرفاته الهوجاء على الصليبيين جميعاً خصوصاً في وقت كانت فيه شخصية مثل شخصية صلاح الدين الايوبى هى التى تحكم مصر والشام ، وتواجه الصليبيين .

وكانت بداية الاحتكاك بين رينو وصلاح الدين في عام ١١٨١ ، اذ تناسى رينو أمر الهدنه المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين في عام ١١٨٠ ، والتى سبقت الاشارة اليها ، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوجه الى صحراء العرب حيث أوغل فيها حتى وصل الى واحة تيماء ، وهى واحة لها اهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الاردن والمدينة المنورة ، وقد وصفها صلاح الدين في رسالته الى الخليفة العباسى بانها (دهليز المدينة) . وكان هدف رينو دى شاتيون من تصرفه هذا أن يصل حتى المدينة المنورة حيث يقوم بتخريب الاماكن المقدسة بها . لكن صلاح الدين اصدر أوامره الى نائبه في دمشق وهو ابن اخيه ويدعى فرخ شاه بالاغارة على الاردن حتى يجبر رينو على العودة دون اتمام مشروعه . وقد كان فعاد رينو الى امارته للدفاع عنها ضد هجمات المسلمين ، بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة المكرمة وسلب جميع مابها من نفائس .

وقد ازعج تصرف ارناط هذا المسلمون والصليبيون على حد سواء ، فقد انزعج الصليبيون لأن هذه الغارة التى قام بها رينو قد عكرت صفو السلام القائم بينهم وبين صلاح الدين ، وأما المسلمون فقد انزعجوا أشد الانزعاج لتطاول هذا الصليبى ومحاولته المساس بالاماكن المقدسة التى يتجهون اليها بقلوبهم ، وهو التصرف الذى لم يجرؤ أحد من الصليبيين قبله أن يفعله . لذلك

فقد أرسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس بلدوين الرابع يطلب منه أن يجبر رينو على رد ماسلبه من أموال القافلة واطلاق سراح من أسره من رجالها ، وقد طلب بلدوين من رينو تحقيق كل ماطلبه صلاح الدين ، ولكن رينو رفض تنفيذ كل ماطلبه الملك بلدوين .

وقد رد صلاح الدين على هذا العمل بأن أسر نحو ألفين وخمسمائة مسيحى كانوا في طريقهم لزيارة الاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين ولكن شاءت الظروف أن يتعرضوا لعاصفة اطاحت بسفنهم على شاطىء دمياط ، وأعلن صلاح الدين أنه لن يفرج عن هؤلاء الحجاج الا بعد أن يفرج رينو عن الاسرى المسلمين وأموالهم .

وفي مايو ١١٨٢ . غادر صلاح الدين مصر الى الشام وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه مصر ، اذ ظل بالشام يناضل الصليبيين حتى ادركه الموت .

ولم يلبث رينو دى شاتيون ان قام بتصرف طائش آخر ، بمحاولته الثانية تخريب الاماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان رينو يهدف من وراء ذلك الى طعن العالم الاسلامى في قلبه ، أما الهدف الثانى فكان السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى .

وقد قام ارناط بالاستيلاء على أيله ذلك المركز الهام والتى تقع على خليج العقبة ، ثم استولى على جزيرة القلعة المواجهة لها في خليج العقبة أيضاً . ثم قام رينو بغارة بحرية على السواحل المصرية الواقعة على البحر الاحمر ، ثم سار بسفنه حتى وصل الى ميناء عيذاب في مواجهة جدة ، وقد نهب رينو بعض السفن التجارية الوافدة من جدة واليمن وعدن والهند .

وقد بلغ من جرأة رينو واعوانه انهم انتقلوا بعد ذلك الى شاطىء الحجاز ، حيث تركوا سفنهم واستعانوا ببعض الخونة من البدو الذين دلوهم على داخلية البلاد فتوغلوا فيها حتى اصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة . ولم يسكت المسلمون على هذا التهديد السافر للاماكن الشريفة بالحجاز ، فخرج حسام الدين لؤلؤ قائد الاسطول المصرى على رأس قوة بحرية ، أغارات على

أيلة حيث وجدوا بعض السفن الصليبية فاحرقوها وأسروا من فيها . ثم تعقبوا السفن الصليبية عند عيذاب فساحل الحجاز ، وقد وجدوا السفن الصليبية راسية أمام ساحل الحوراء ، فهاجمها حسام الدين ودمرها وفك أسر التجار المسلمين الذين سبق أن أسرهم الصليبيين وقد نزل حسام الدين بقواته على الساحل وأخذ في مطاردة الصليبيين بين الجبال حتى تم له أسرهم جميعاً فيما عدا رينو الذى نجح في الفرار وقد نذر صلاح الدين دمه وأقسم الا يغفر له فعلته هذه .

أما الاسرى الصليبيين فقد أرسل بعضهم الى منى وكان موسم الحج قد أزف فذبحوا كما تذبح الشاه عقاباً لهم على فعلتهم هذه ، أما باقى الاسرى فقد عاد بهم حسام الدين لؤلؤ الى مصر حيث تم تشهيرهم بشوارع القاهرة والاسكندرية .

ولم يلبث رينو دى شاتيون ان طلب الصفح والأمان من صلاح الدين فتم عقد هدنة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين ورينو من جهة أخرى . وبناء على هذه الهدنة أخذت قوافل الحجاج والتجارة تغدوا وتروح بين البلاد الاسلامية مارة بصحراء الاردن . ومما لاشك فيه أن رينو قد كسب من وراء ذلك الكثير نتيجة للمكوس التى كان يفرضها على هذه القوافل . على أنه لم يقنع بكل ذلك وانما عاوده الحنين الى أعمال اللصوصية والقرصنة . وكان أن انقض بكل الغدر والخيانة على قافلة تحمل بضائع ثمينة كانت في طريقها من القاهرة الى دمشق في اوائل عام ١١٨٧ . وقد استولى رينو على كل ماتحمله القافلة من أشياء نفيسة وأسر رجالها عن آخرهم في حصن الكرك حيث أساء معاملتهم الى حد كبير . ولم يكتف بذلك وانما أصر على غيّه ورفض ماطلبه صلاح الدين من فك أسرى الرجال واعادة الاموال والبضائع اليهم ، وكان رده يتسم بسوء الخلق والاصرار على استفزاز صلاح الدين والمسلمين حيث رد على صلاح الدين قائلًا : « قولوا لمحمد يخلصكم » .

وقد بلغ الضيق بصلاح الدين أشده ، ولكنه تمالك نفسه وارسل الى ملك بيت المقدس جاى لوز جنان طالباً منه أن يرغم رينو على رد الاسرى

والبضائع ، ولكن الملك جاى لم ينجح في مهمته اذ ان رينو كان يشعر بانه صاحب فضل عليه لمساعدته في الوصول الى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية عقب وفاة الملك الطفل بلدوين الخامس في ١١٨٦ . فما كان من الملك جاى الا أن اخبر صلاح الدين بعجزه عن ارغام رينو على رد الاسرى والغنائم . وهكذا لم يعد هناك مجال امام صلاح الدين الا اعلان الحرب على الصليبيين فأخذ في تعبئة قواه تعبئة شاملة وخرج من دمشق على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب حيث هاجم حصن الكرك وضرب حوله وكذلك فعل بحصن الشوبك وهكذا اصبح رينو دى شاتيون محصوراً داخل حصن الكرك في الوقت الذى كان صلاح الدين يتمتع بحرية الحركة.وقد رغب صلاح الدين في ابريل ١١٨٧ في ارسال قوة استكشافية لتقوم بالاغارة على اقليم عكا ، ولما كانت هذه القوة في بانياس فقد كان عليها لكى تصل الى عكا ان تمر باقليم الجليل الذي يخضع لريموند أمير طرابلس والذى كان في حالة تحالف مع صلاح الدين . وهنا وجد ريموند نفسه في موقف حرج ، فهو اذاً لم يجب طلب صلاح الدين تعرض لافساد العلاقات معه ، واذا وافق فلاشك ان ذلك سيغضب الصليبيين ، ولم يجد ريموند مفراً من السماح لهذه القوة بالعبور خلال إقليم الجليل ولكنه في نفس الوقت اعطى تعليماته الى مدن هذا الاقليم مثل الناصرة وطبرية باغلاق ابوابها حتى لايستولى عليها المسلمون .

على ان هذا العبور لم يمر بسلام ، وذلك بسبب مقدم الداوية جيرار دى ريد فورت الذى كان معروفاً عنه وعن فئته التعصب الشديد ضد المسلمين ، فحين علم بمرور هذه القوات خلال اقليم الجليل جمع بضع مئات من الصليبيين وتصدى للمسلمين بالقرب من صفورية ، وقد دارت معركة عنيفة بين الطرفين في مايو ١١٨٧ اسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين الذين قتلوا القوة الصليبية عن آخرها باستثناء بضعة أشخاص نجحوا في الافلات من القتل ، وبعد المعركة وصلت قوة أخرى من الصليبيين تمكن المسلمون من أسرها ، وعادوا سالمين وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة حرابهم .

وقد حمّل الصليبيون ريموند امير طرابلس مسئولية هذه الكارثة التى حاقت بهم فلم يجد بداً من نقضه تحالفه مع صلاح الدين والعودة الى التعاون مع بنى

جلدته الصليبيين ، فما كان من صلاح الدين الا أن رد على تصرف ريموند بالهجوم على مدينة طبرية التابعة لزوجته أشيفا وكان ذلك في أوائل يوليو ١١٨٧ ، وقد اقتحم المسلمون المدينة واحرقوها ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتها التى احتمت بداخلها أشيفا .

وقد اجتمع الصليبيون في صفورية بالقرب من عكا ، وأخذوا في حشد جيوشهم ، ثم عقدوا اجتماعاً للحرب في عكا طلب بعضهم مثل رينو دى شاتيون ومقدم الداوية وغيرهم من المتطرفين ، ضرورة الاشتباك مع صلاح الدين وتخليص طبرية من ايدى المسلمين ، ومن الغريب ان ريموند أمير طرابلس وهو صاحب طبرية لم يؤيد مبدأ الاشتباك مع المسلمين وألقى في الصليبيين خطبه أعلن فيها رأيه هذا موضحاً أن قوات المسلمين كثيرة وحشودهم ضخمة وان من الأفضل عدم الاشتباك معهم في معركة ، لكن المتطرفين الذين سبقت الأشارة اليهم وعلى رأسهم رينو دى شاتيون هاجموا ريموند واتهموه بأنه يحب المسلمين ويميل اليهم . وقد استطاع رينو ومن على شاكلته من الصليبيين التأثير على ملك بيت المقدس الضعيف الشخصية جاى لوزجنان ، وانتهى الرأى وتم الاتفاق على أن يسير الصليبيين من صفورية حتى طبرية لقتال صلاح الدين وتخليصها من يديه .

وقد سر صلاح الدين سروراً عظيماً حين علم بخطة الصليبين هذه وعزمهم على المسير اليه ، وقال (جاءنا مانريد)،ويفهم من ذلك ان صلاح الدين كان يريد ان يسير اليه الصليبيين حتى تنهك قواهم من وعورة الطريق وطول الرحلة الذى بلغ ١٦ ميلاً وحرارة الجو ، وقد كان ، اذ سار الصليبيون في اتجاه طبرية ، ولكن صلاح الدين ترك طبرية وتقدم حوالى خمسة أميال حتى وصل الى قرية حطين التى تمتاز بوفرة الماء وكثرة المرعى . وفي يوم ٣ يوليو ١١٨٧ وصل الصليبيون الى سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهو عبارة عن هضبة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثلثمائة متر ، ولها قمتان اطلق المسلمون عليها اسم قرون حطين . وقد وصل الصليبيون الى هذا الموقع وهم في غاية الارهاق والتعب ، كما اشتد بهم العطش أيضاً وقد نصبوا معسكرهم فوق هذه الهضبة ، وكان في اسفل الهضبة تقع بحيرة طبرية ، وقد حاول

بعضهم الوصول الى ماء البحيرة لاطفاء نار ظماهم ، ولكن حال المسلمون بينهم وبين الوصول اليه ، وقد قضى المسلمون ليلتهم وهم يهللون ويكبرون (الله أكبر) ، كما استغلوا ستار الليل واحاطوا بالهضبة التى عسكر الصليبيون فوقها احاطة الدائرة بقطرها . وفي صباح ٤ يوليو ١١٨٧ م . ، كان اليوم شديد الحرارة ، كما ان المسلمين اشعلوا النيران في الحشائش الموجودة باسفل الهضبة وكان الهواء على الصليبيين ، فحمل اليهم حر النار والدخان ، فاجتمع عليهم كما يقول ابن الاثير « العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال » .

وهكذا اصبح الموقف شديد الصعوبة بالنسبة للصليبيين ، الذين انهكهم العطش واشتد عليهم الحر ، وأخذ المسلمون يتسلقون الهضبة وهم يقاتلون قتال الابطال ، والصليبيون يتراجعون امامهم نحو قمتى الهضبة وقد نجح ريموند أمير طرابلس في الفرار من المعركة فكان الوحيد من زعماء الصليبيين الذى نجا ، أما باقى الصليبيين فوقعوا مابين قتيل وأسير حتى لم يبق الا الملك جاى لوزجنان ومعه رينو دى شاتيون ومائة وخمسون من رجاله . وقد تم اسرهم جميعاً وبلغ من كثرة القتلى والأسرى ان قال المؤرخ ابن الاثير « وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك اسرى ، ومن يرى الأسرى يحسب ان ليس هناك قتلى » وقد سيق الأسرى الى معسكر المسلمين واستقبل صلاح الدين في خيمته الملك جاى لوز جنان ورينوى دى شاتيون وكان الملك جاى يعانى من العطش فقدم له صلاح الدين اناء به ماء مثلج ليروى ظمأه ، وبعد ان ارتوى الملك قدم مابقى من الماء لرينو دى شاتيون ، ولكن صلاح الدين غضب لذلك وقال للملك جاى « ان هذا الملعون لم يشرب الماء بأذنى ليناله امانى » وأخذ يؤنب رينو على تصرفاته الطائشة ضد المسلمين وقال له : « كم تحلف وتنكث ؟ » فرد عليه رينو بوقاحته المعهودة : « هكذا جرت عادة الملوك » وقد ضايق رده هذا صلاح الدين لدرجة انه تناول سيفه واطاح برقبته ، فذعر الملك جاى وتوحس خيفه من قتله هو الآخر على هذا النحو ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له : « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك اما هذا فقد تجاوز حده ولذلك جرى عليه ماجرى » .

طيبة للغاية وقد بلغ من كثرة الاسرى انهم كانوا يباعون بالجملة أى تباع الأسرة المكونة من الأب والأم والأبناء والبنات بيعة واحدة وبالسعر البخس .

صلاح الدين وانهيار مملكة بيت المقدس الصليبية :

لقد فتح نصر حطين الطريق الى بقية الممتلكات الصليبية بالشام وفلسطين ، بعد أن اصبحت البلاد الواقعة تحت سيطرة الصليبيين وليس بها من يحميها بعد ان سقط فرسان المملكة الصليبية مابين اسير وقتيل اثناء معركة حطين . وكان من المنتظر ان يتجه صلاح الدين بعد حطين مباشرة الى بيت المقدس لفتحها ، ولكن تجلت عبقرية صلاح الدين وبعد نظره في تأجيله فتح بيت المقدس والبدء بفتح البلاد الساحلية ليقطع بذلك الشريان الذي يمد الصليبيين بداخل الشام وفلسطين بالمساعدات العسكرية الآتية من الغرب الاوروبى وبذلك يعزل هذه البلاد الداخلية عن الاستفادة بأية معونة حربية يرسلها الغرب الاوروبى فيسهل بذلك فتحها .

هذا فضلًا عن ان استيلاء صلاح الدين على موانى الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته في مصر والشام .

وقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرهم من الثغور الساحلية ، ولم يستعصى على صلاح الدين سوى مدينة صور التى كانت كما يصفها العماد الاصفهانى : « محاطة بالبحر من معظم نواخيها كأنها سفينة » . واضطر صلاح الدين الى استدعاء الاسطول المصرى المرابط في عكا ليقوم بمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من ناحية البر .

والواقع ان من العوامل الهامة التى ساعدت صور على الصمود فى وجه صلاح الدين وجيوشه واسطوله ، وصول كونراد دى مونتفرات الذى يصفه المؤرخ المسلم ابن شداد بقوله انه : « كان رجلًا عظيماً ذا رأى وبأس في دينه ، وصرامة عظيمة » ، وكونراد هذا هو ابن وليم دى مونتفرات الذى

قاتل الى جانب الصليبيين في معركة حطين ووقع اسيرا في يد صلاح الدين ، وهو شقيق بونيفيس دى مونتفرات الذى سيلعب دوراً هاماً في الحملة الصليبية الرابعة ، حيث انه كان قائد هذه الحملة التى انحرفت واتجهت ضد القسطنطنية في ١٢٠٤ حيث اسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة لاتينية بها . وكان كونراد قد جاء من الغرب الاوروبى ونزل بالقسطنطينية حيث ساعد في القضاء على الثائر البيزنطى براناس في عام ١١٨٦ ، وهزم براناس وارسل رأسه للامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق ، ثم ترك الاراضى البيزنطية واتجه الى الشام حيث وصل الى عكا بعد معركة حطين ووقوع عكا في يد المسلمين ، الذين لم يتعرضوا لكونراد بسوء وتركوه يغادر عكا في أمان ، فاتجه الى مدينة صور ، والتف حولة الاهالى بها حيث أخد كونراد ينظم صفوف المقاومة في صور ضد المسلمين ، وكان قد اجتمع بصور اعداد كبيرة من الصليبيين ، الذين فتح صلاح الدين بلادهم فلم يجدوا امامهم مأوى يأويهم الا صور فتجمعوا بها ، وقد أخذ كونراد في تقوية روحهم المعنوية وحثهم على الصمود والدفاع عن مدينتهم . وهكذا صمدت صور في وجه صلاح الدين الذى حاصرها براً وبحراً .

وقد حدثت معركة بحرية بين المراكب الحربية الصليبية الموجودة داخل ميناء صور وبين مراكب الاسطول المصرى ، ونجح المصريون في تشتيت مراكب العدو وابعادها وضرب حصار قوى حول ميناء صور . وكان من المنتظر ان تسقط المدينة سريعاً بعد هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون ، ولكن الذى حدث ان رجال الاسطول المصرى امام صور احتفلوا بانتصارهم ، وسهروا تلك الليلة الى السحر ، ثم غلبهم النعاس فناموا ، وقد انتهز الصليبيون هذه الفرصة واغاروا على الاسطول المصرى وأسروا خمسة سفن من سفنه ، وأسروا قائد هذه السفن ويدعى عبد السلام المغربى ، وألقى البحارة المسلمين بأنفسهم في البحر فغرق منهم من غرق ونجا من نجا . واضطر صلاح الدين ازاء هذا الموقف ان يصدر أوامره الى رؤساء المراكب الباقية ان يرفعوا الحصار عن صور

ومما لاشك فيه ان هذه الهزيمة التي منى بها الاسطول المصرى في مياه صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة ، فصاروا يخرجون منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر الى رفع الحصار عن صور والانسحاب جنوباً الى عكا ، وترك أمر صور لكى يعود اليها في وقت آخر .

وهكذا لم يبق امام صلاح الدين في داخل فلسطين سوى المدينة الهامة بيت المقدس عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية ولنرى كيف تم لصلاح الدين فتحها .

كان باليان دى ابلين من الفرسان الصليبيين الذين تم أسرهم أثناء معركة حطين ، وكان باليان متزوجاً من ملكة بيت المقدس السابقة ماريا كومنين ارملة الملك عمورى الأول ، وهي سيدة بيزنطية من عائلة كومنين الشهيرة ، وقد توسل باليان لصلاح الدين طالباً منه السماح له بالذهاب الى بيت المقدس لأخذ زوجته وابنائه ومغادرة المدينة على الفور ، أوكعادة صلاح الدين وتسامحه وكرم اخلاقه ، سمح له بذلك بعد أن أقسم لصلاح الدين ألا يبيت داخل بيت المقدس أكثر من ليلة واحدة على أن باليان لم يلبث بعد وصوله الى بيت المقدس ان نكث بوعده وقسمه لصلاح الدين ، وتزعم حركة المقاومة ضد المسلمين ، وذلك انه وجد المدينة في حال يرثى لها بعد أن فقدت ملكها وفرسانها ، وقد بلغ من نقص الرجال بها انه كان هناك رجل واحد مقابل كل خمسين امرأة وطفل ، وقد توسل أهالي بيت المقدس لباليان ان يبقى معهم ويتولى الدفاع عن المدينة ضد المسلمين ، فوافق باليان واتخذ اجراءات سريعة لتقوية الدفاع عن المدينة ولكن كل اجراءاته كانت ليست ذات قيمة بعد أن انعدم عنصر الفرسان المدربين .

وقد استقبل صلاح الدين قبل وصوله الى بيت المقدس وفد من المدينة ذاتها فعرض عليهم ان يسلموا المدينة مقابل تأمينهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن شاء منهم الخروج من المدينة سالماً . وهى نفس الشروط التى فتح بها صلاح الدين جميع بلاد مملكة بيت المقدس الصليبية ، غير أن

الوفد رفض مطالب صلاح الدين وأوضحوا : « ان الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس » . عند ذلك أقسم صلاح الدين على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف ، فنزل على المدينة محاصراً لها وقد طاف بالمدينة خمسة أيام يتحسس موضع الضعف فيها ، حتى استقر رأيه أخيراً على تركيز الهجوم على الجانب الشمالى منها ، وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب صهيون ، فحمل المسلمون (حملة رجل واحد) حتى وصلوا الى سور المدينة ونقبوه .

ومن الامور الغريبة ان الملكة ماريا كومنين زوجة باليان دى أبلين الذى نكث بوعده لصلاح الدين والذى تزعم حركة المقاومة ضده داخل بيت المقدس ، طلبت من صلاح الدين ان يسمح لها بمغادرة المدينة (بيت المقدس) هى وابنائها ، وقد سمح لها صلاح الدين بما طلبت ، بل أكثر من ذلك ، أمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والاطفال الذين رغبوا في مغادرة بيت المقدس ان يخرجوا من المدينة آمنين .

وقد عرض صلاح الدين للمرة الثانية على أهالى المدينة الخروج بنفس الشروط التى سبق ان عرضها عليهم ، ولكنهم رفضوا .

وعندما أدرك باليان استحالة التغلب على جيوش صلاح الدين المحاصرة لبيت المقدس قرر الاستسلام ، فارسل وفداً لمقابلة صلاح الدين وعرضوا عليه تسليم المدينة على نفس الشروط التى سبق ان عرضها عليهم ، ولكن صلاح الدين أبى في تلك المرة أن يوافق على طلبهم وأصر على أن يواصل حصاره للمدينة حتى يفتحها بحد السيف ، وقال لرسل الصليبيين : « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله ، حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمائة (١٠٩٩ م) واجزى السيئة بمثلها » .

وقد خرج باليان بنفسه لمفاوضة صلاح الدين في شروط الاستسلام ، ولكنه وجد اصراراً من صلاح الدين على فتح بيت المقدس بحد السيف عند ذلك لجأ باليان للتهديد فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتل ابناءنا ونساءنا ونحرق مانملكه من أموالنا وامتعتنا ، ولا نترككم تنعمون

منا ديناراً ولا درهماً ولا تأسرون رجلًا ولا امرأة فاذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع الشريفة ، ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولانترك لنا دابة ولاحيوان الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد ان يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله » .

عندئذ اعاد صلاح الدين التفكير فى الأمر مرة أخرى واستشار اصحابه فيما ينبغي فعله ، فاجمعوا على الموافقة على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، وديناراً واحداً للطفل . أما الفقراء فقد دفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغاً قدره ثلاثون ألف دينار . وقد اعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة قدرها اربعون يوماً لكى يدفعوا الفداء ويغادروا المدينة ومن بقى بعد الاربعين يوما ولم يؤد ماعليه صار مملوكاً .

وفي يوم الجمعة ١٢ اكتوبر ١١٨٧ م . وهو يوافق ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ وهى ليلة الاسراء والمعراج ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وقد رتب على كل باب من أبواب المدينة أميناً من الامراء لتحصيل الفدية المتفق عليها ، وقد أظهروا تسامحاً كبيراً تجاه فقراء المسيحيين الذين لم يقدروا على دفع الفدية ومنحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص كما أن صلاح الدين قد عامل نساء الصليبيين معاملة طيبة للغاية اشاد بها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على حد سواء . وقد ارسل الحراس ليصاحبوا الخارجين من بيت المقدس من الصليبيين خوفاً عليهم من اعتداءات البدو . واذا قارنا بين هذه المعاملة التى ان دلت على شيء فانما تدل على مدى الحضارة التى كان عليها المسلمون فى تلك الآونة ، بالتصرف الهمجى للصليبيين يوم ان فتحوا بيت المقدس فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ واجروا به مذبحة مروعة بحيث انهم لم يتركوا مسلما فى الطرقات أو المساجد أو البيوت والا قتلوه واستباحوا دمه ، دون ان يفرقوا بين رجل وطفل وامرأة ، ولم يراعى الصليبيون حرمة المسجد الاقصى فاجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين وكان عددهم أكثر من سبعين ألف

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم انكار هذه الحقائق فذكر وليم الصورى ان بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة مروعة حتى ان البلد اصبح « مخاضة واسعة من دماء المسلمين اثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » . وذكر مؤرخ صليبى آخر كان شاهد عيان لهذه الاحداث انه عندما زار المسجد الاقصى غداة المذبحة الرهيبة التى اجراها الصليبيون ، لم يستطع ان يشق طريقة وسط اشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وان دماء القتلة بلغت ركبتيه . ولذلك فليس بمستغرب ان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين مثل رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان ، يعترفون بان مذبحة بيت المقدس هذه كانت وصمة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

أقول لو قارنا بين فتح الصليبيين لبيت المقدس والمذابح الرهيبة التى اجروها للمسلمين ، وبين فتح صلاح الدين لهذه المدينة المقدسة والمعاملة الطيبة التى عامل بها الصليبيين لبدا الفرق واضحاً بين حضارة المسلمين وترفعهم عن الانقياد وراء شهوة الانتقام ، وبين بربرية الصليبيين الغربيين الذين اتصفت تصرفاتهم وتشبعت بروح الكراهية والحقد المتأصل في نفوسهم تجاه المسلمين .

وقد كان صدى فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبى في العالم الاسلامى كبيراً ، وهلل المسلمون لهذا النصر وأتوا القدس الشريف من كل قطر زائرين له . وقد أخذ صلاح الدين يعمل على ازالة كل أثر للصليبيين في بيت المقدس ، فانزل الصليب الكبير الذهبى الذى أقامه الصليبيون في أعلا قبة الصخرة ، كما أمر بغسل الصخرة نفسها بعدة أحمال من ماء الورد وبخرت وفرشت .

وقد نادى بعض المسلمين بهدم كنيسة القيامة وقالوا « اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفرت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار ، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة » . ولكن صلاح الدين لم يوافق على هذا الرأى وأمرهم باحترام الاماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس والتزام روح التسامح مع المسيحيين وهو الأمر الذى انتهجه المسلمون دائماً تجاه أهل الذمة .

الفصـــل الثالـث

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

لقد كان لسقوط بيت المقدس في يد المسلمين وانهيار المملكة الصليبية آثار خطيرة لدى المسيحيين وخاصة في الغرب الاوروبى . وقد عمل كونراددى منتفرات على اذكاء روح البغض والكراهية تجاه المسلمين ، بما ارسله للغرب الاوروبى من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في اوروبا وهى تمثل القبة المقدسة والقبر المقدس وقد لوثته خيول المسلمين ، ونسى كونراد أو تناسى كرم وتسامح صلاح الدين ومعاملته الطيبة للصليبيين كافة على النحو الذى تم توضيحه فيما سبق من احداث .

وقد ارسل كونراد مع هذه اللوحة جوسياس رئيس اساقفة صور ليطلب من البابوية وملوك الغرب المساعدة العسكرية العاجلة . لذا فان كونراد دى منتفرات يعتبر مسئولاً أكثر من غيره عن الدعوة للحملة الصليبية الثالثة .

وقد قابل جوسياس البابا ايربان الثالث الذى كان مسناً ومريضاً فلم يتحمل الانباء السيئة التى نقلها اليه جوسياس وخاصة استيلاء المسلمين أو بمعنى أصح استعادتهم لبيت المقدس ، وقد توفى البابا ايربان الثالث غماً وحزناً بعد سماعه لهذه الاخبار .

وتجدر الاشارة الى أن الحملة الصليبية الثالثة تختلف عن الحملة الاولى ، من حيث أنها لم تنبع من البابوية ، وانما بعث من السلطة العلمانية ، التى تمثلها امبراطورية المانيا (الامبراطورية الرومانية المقدسة) ، وملكية انجلترا وفرنسا . وقد اعلن الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا الاشتراك في توجيه حملة صليبية الى الاراضى المقدسة ، وقرر ملك فرنسا فيليب اوغسطس وملك انجلترا هنرى الثانى ، الاشتراك سوياً في حملة صليبية . وما اتخذه كل من هذين الملكين من الوسائل للقيام بالحملة الصليبية انما يدل على ماكان لهذه الحملة من مظهر علمانى . اذ قاما بفرض ضريبة وهى المعروفة باسم عشور صلاح الدين ، على كل من لم ينهض لاتخاذ الصليب والاشتراك في الحملة دفعت من جهة عدداً كبيراً الى ان يتخذوا الصليب ويشتركوا في الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها ، وصارت من جهة أخرى تعتبر أساساً مالياً للعمليات الحربية . والاساس العلمانى للحملة الصليبية الثالثة هو الذى جعلها من جهة أكثر

الحملات الصليبية ، اذ اشترك فيها الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب أوروبا ، وجعلها من جهة أخرى من عوامل فشلها ، لأن ملكي انجلترا وفرنسا بعد أن تغيرت نواياهما ، نقلا مابينهما من منازعات سياسية ، الى الحركة الصليبية ، بعد أن تم الاتفاق بينهما على ضرورة اغفالها ونبذها . ولذلك فان الحملة الصليبية الثالثة تعتبر من الناحية الروحية أقل شأناً من الحملة الصليبية الأولى . ومهما يكن فان هنرى الثانى ملك انجلترا توفى فى اوائل يوليو ١١٨٨ فخلفه ابنه ريتشارد قلب الاسد الذى توج فى سبتمبر ١١٨٨ .

وفى صيف ١١٩٠ أبحر ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضى كل منهما فصل الشتاء فى جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠ — مارس ١١٩١) مستمتعين بجو صقلية الدافىء . أما امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا فقد خرج على رأس جيوشه فى مايو ١١٨٩ فى طريقه للاراضى المقدسة فى فلسطين متخذاً الطريق البرى عبر هنغاريا ماراً بأراضى الدولة البيزنطية .

والواقع ان شخصية فردريك بربروسا استحوذت على اعجاب المؤرخين فى مختلف العصور التاريخية ، فيقال انه جمع فى شخصه جميع الشيم التى افتخرت بها فروسية العصر الذى عاش فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط فضلاً عن شغف بالقتال والنزال وولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلاً عرفياً مصدره حسن الادراك ، لا القانون الجامد . ويقول المؤرخ فيشر انه لم يعتل عرش المانيا منذ شارلمان مَلك تم فيه من الخلال المؤهلة لحكم الالمان مثلما تم فى بربروسا ، اذ كان باستطاعته ان يخيف العقول ويسحرها بلطفه فى آن واحد ، ولمس رجال الدين والامراء الاقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة ، واعتبروه مثال الفارس الكامل .

على أية حال فان فردريك بربروسا وصل الى أراضى الدولة البيزنطية على رأس جيوشه التى بلغت مائة ألف مقاتل ، وكان بصحبته ابنه فردريك أمير سوابيا ، الذى عرف باسم فردريك السوابى . ويهمنا فى هذا المجال ان نتعرض للعلاقة بين فردريك بربروسا والامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس الذى كان يحكم الامبراطورية البيزنطية آنذاك (١١٨٥ — ١١٩٥) . فقد اتصفت هذه

العلاقه بالكراهية والبغض الشديد وذلك لعدة أسباب منها العداء التقليدى الذى ساد دائماً العلاقات بين الامبراطوريتين البيزنطية والالمانية ، وقد نظر الاباطرة البيزنطيين دائماً نظرة احتقار وتعالي للامبراطور الالمانى (المحدث) ، الذى لم يحظى بلقب الامبراطور الا منذ عام ٨٠٠ م حين توج البابا ليو الثالث شارلمان امبراطوراً ، وبذلك أوجد منافساً خطيراً للامبراطور البيزنطى الذى كان يعتبر فريداً من نوعه ، وقد رفض الاباطرة البيزنطيون دائماً الاعتراف بالاباطرة الالمان الذين كانوا يطمعون في الامبراطورية البيزنطية منذ عصر شارلمان . أضف لذلك ان الامبراطور فردريك بربروسا كان في حالة تحالف مع النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا وهم الاعداء الألداء للامبراطورية البيزنطية لما لهم هم الآخرون من اطماع فيها ، وقد ظهرت هذه الاطماع بوضوح خلال عصر الامبراطور اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨) الذى خاض نضالًا عنيفاً ضد روبرت جويسكارد النورمانى الذى نزل مهاجماً لأراضى الامبراطورية البيزنطية في البلقان ، وقد ظل النورمان على عدائهم للبيزنطيين واطماعهم في الدولة البيزنطية وتاريخ الحملة الصليبية الاولى حافل بالصراع الذى نشب بين بوهيمند النورمانى ابن روبرت جويسكارد وبين الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس حول امتلاك انطاكية . هذا الى جانب العداء التقليدى أيضاً الذى كان بين الدولة البيزنطية والصليبيين بصفة عامة منذ الحملة الصليبية الأولى . لذلك لانعجب حين نجد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجليوس يواجه فردريك بربروسا بالعداء منذ أن وطأت قدماه الأرض البيزنطية ، مما دفع بربروسا الى ارسال رسالة لابنه هنرى في المانيا يطلب منه اعداد الجيوش لقتال الدولة البيزنطية . وقد اخذ اسحاق انجيلوس يرسل لصلاح الدين الرسالة تلو الاخرى يخبره فيها بتحركات الألمان ، ومحاولاته المستمرة لعرقلة مرورهم عبر اراضيه .

وقد رد صلاح الدين هذا الجميل للامبراطور البيزنطى بان وافق على وضع الاماكن المقدسة المسيحية في بلاد الشام وفلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس . وقد وافق الامبراطور البيزنطى من جانبه على اشراف صلاح الدين على الجامع الموجود بالقسطنطينية ، وهو الذى تم بناؤه في عصر

الامبراطور ليو الثالث الايسورى ، وفي خلافة الأمويين . وقد ارسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء الى القسطنطينية واقيمت الخطبة بهذا الجامع للخليفة العباسي .

ولم يلبث فردريك بربروسا بعد أن ووجه بهذا العداء من جانب الامبراطور البيزنطى ان رحل الى آسيا الصغرى في أواخر مارس ١١٩٠ . وقد دخل الامبراطور الالمانى وجيشه الى أراضى سلطان سلاجقة الروم الذين اتخذوا من مدينة قونية في آسيا الصغرى عاصمة لهم وكان يدعى قليج ارسلان الثانى . ويهمنا أيضاً أن نشير هنا الى علاقات الود التى ربطت بين هذا السلطان المسلم الذى ينتمى الى السلاجقة الذين حملوا لواء الجهاد ضد المسيحيين منذ وصولهم الى آسيا الصغرى عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وبين الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا . وقد تعهد له قليج ارسلان بامداده بالمرشدين وحمايته ورجاله من المعتدين.واذا تساءلنا عن الدافع لقليج ارسلان لأن يدخل في تحالف مع هذا الامبراطور الصليبى لوجدنا ذلك يرجع الى عداء قليج ارسلان لكل من الامبراطور البيزنطى من جهة ولصلاح الدين من جهة أخرى ، وقد وجد في تحالفه مع الامبراطور الالمانى الرد على تحالف صلاح الدين مع اسحاق انجيلوس .

وبناء على الاتفاق الذى تم بين قليج ارسلان وفردريك بربروسا فقد أمده سلطان سلاجقة الروم بالادلاء والمرشدين الذين قادوا الجيش الالمانى خلال آسيا الصغرى حتى وصلوا الى ارمينيا في سلام .

وهكذا اصبح الوضع بالغ الخطورة بالنسبة للجانب الاسلامى بعد أن وصلت الحملة الالمانية الى ارمينيا وكانت الحملة الفرنسية والحملة الانجليزية في طريقهما للشام ، وهكذا أحس المسلمون انهم سيقعوا بين شقى الرحى أو فكي الكماشة . حين يتعرضون لضغط الالمان من الشمال من جهة ارمينيا وضغط الفرنسيين والانجليز من ناحية الجنوب أى من ناحية السواحل المطلة على البحر الابيض المتوسط .

وقد أورد المؤرخون المسلمون عبارات توضح مدى اليأس الذى انتاب

المسلمون عندما علموا بوصول الالمان الى ارمينيا فقال ابن الاثير . « لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام » ، وقال أبو الفدا : « بلغ المسلمون وصول ملك الالمان ، وكان قد سار من بلاد ماوراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية » .

وقد سيطر القلق على صلاح الدين ، واتخذ من الاجراءات مايكفل عدم سيطرة الصليبيين على المراكز الاسلامية الهامة واستخدامها في محاربة المسلمين ، فأمر بهدم سور طبرية ويافا وارسوف وقيساريه وصيدا وجبيل ، ونقل أهلهم الى بيروت .

لكن الله سبحانة وتعالى لطف بالمسلمين ، وشاء تعالى ان يرفع عنهم ذلك الخطر الجسيم الذين تعرضوا له ، اذ غرق فردريك بربروسا اثناء عبوره لنهر السالف فى أرمينيا . وقد تعددت الروايات بصدد غرقه ، فمن قائل بأنه رمى بنفسه أثناء عبوره للنهر من على ظهر فرسه ليطفىء حرارة جسده ، فغرق ، ورواية أخرى تقول ان فرسه قد جمح به وألقاه فى الماء على حين غرة ولما كان فردريك يرتدى ملابس الحرب الثقيلة من الدروع وغيرها فانه لم يستطيع ان ينهض وغرق . اما الرواية الثالثة فتقول انه نزل ليستحم فى مياه النهر فغرق فى موضع لايصل فيه الماء الى وسط الرجل . ومهما يكن ، فان غرق فردريك بربروسا على هذا النحو كان تدخلاً من الاقدار في ساعة حاسمة في مصير المسلمين بالشام في هذه المرحلة التاريخية من نضالهم مع العدو الصليبى .

وقد هلل المسلمون لاختفاء الامبراطور على هذا النحو وقال ابن الاثير : « لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان - لما خرج على ماتذكره عند خروجه الى الشام - والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين » .

وبموت فردريك بربروسا انفلت زمام الجيش الالمانى ولم يستطع ابنه فردريك السوابى ان يسيطر عليه ، فعادت طائفة منه الى الغرب الاوروبى تجر اذيال الخيبة ، أما فردريك فقد حمل جثمان والده في جرة نبيذ وسار في طريقه

للشام وعند نهر العاصي أصيب هو ورجاله بالوباء ، فالتقطهم بوهيمند الثالث أمير انطاكية على أمل أن يموتوا عنده فيغنم ما معهم . ولكنهم لم يموتوا وانما اخذوا يستردون صحتهم ، فضاق بهم وثقلت عليه وطأتهم ، فأراد أن يستفيد منهم لمصلحته الخاصة فعرض عليهم مساعدته في الهجوم على حلب ، ولكن فردريك االسوابى رفض ، ورحل هو ورجاله لينضموا الى باقى الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا .

الحملة الصليبية الثالثة والاستيلاء على عكا :

كان الملك جاى لوز جنان أحد الذين وقعوا أسرى في يد صلاح الدين الايوبى في معركة حطين كما سبق أن ذكرنا ذلك في موضعه ، وقد أخذت زوجته سيبل تلح على صلاح الدين لاطلاق سراح زوجها جاى لوز جنان ، وقد استجاب صلاح الدين لتوسلاتها وأطلق سراح جاى في يوليو ١١٨٨ ، وكعادة صلاح الدين في نبل الاخلاق والكرم ، أطلق مجموعة من كبار الشخصيات الصليبية التى كانت في الاسر ، حتى يكونوا رفقاء للملك جاى لوز جنان ، وقد اطلق صلاح الدين سراح جاى ورفقائه دون مقابل مادى على الاطلاق ، وكل ماهنالك أن جاى تعهد لصلاح الدين بألا يشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه الى الابد . وبعد اطلاق سراح جاى لوزجنان توجه مع زوجته سيبل إلى المدينة الوحيدة التى بقيت فى يد الصليبيين من مملكة بيت المقدس الصليبية وهى مدينة صور ، وقد سبق أن ذكرنا ان كونراد دى مونتفرات قد سيطر عليها ودافع عنها ضد المسلمين وحال بينها وبين السقوط في ايديهم ، وقد وصل الملك جاى لور جنان والملكة سيبل الى صور وطالبا كونراد بالسماح لهما بدخولها ، ولكنه رفض أن يسمح لهما بذلك واجابهما بأن هذه المدينة لم تعد مدينتهما وان الفضل يعود اليه في حفظها والدفاع عنها ضد المسلمين ولولا جهوده هده لكانت قد سقطت في أيديهم كما حدث لغيرها من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية . وقد ظل الملك والملكة أمام صور عدة أشهر يحاولان دخولها دون جدوى . ولما وجد الملك جاى لور جنان انه لم يعد له بلد يأويه نكث في قسمه وخان عهده الذى

قطعه لصلاح الدين بالا يشهر في وجهه سيفا أبدا ، واتجه نحو عكا التى تعتبر من أهم مدن الشام الساحلية وثانى مدينة بعد بيت المقدس في الاهمية بالنسبة للصليبيين ، وقد صحب الملك جاى في طريقه الى عكا جموع كثيرة من الفرسان الصليبيين المشردين ، وكذلك مجموعة من الفرسان المقاتلين من النورمان المعروفين بشدة بأسهم في القتال . وكان صلاح الدين في ذلك الوقت مشغولاً بحصار قلعة الشقيف ارنون ، ولم يصدق الانباء التى وصلت اليه عن اعتزام الملك جاى لوز جنان الاستيلاء على عكا ، وظن أن في الأمر خدعة لاجباره على ترك قلعة الشقيف ارنون . ولكن لم يلبث أن تأكد من صحة هذه الاخبار وان الصليبيين وعلى رأسهم جاى لوز جنان في طريقهم فعلاً من صور الى عكا مروراً بالساحل . وقد كان رأى صلاح الدين أن يقضى على جموع الصليبيين قبل أن يصلوا الى عكا ، ولكن امراءه خالفوه في الرأى وطالبوا بتأجيل ذلك حتى تكتمل جموع الصليبيين أمام عكا ويقضون عليهم دفعة واحدة .

ولاشك أن رأى صلاح الدين كان هو الأصح والاسلم ولكن لم يعملوا به ، وهكذا اجتمع امام عكا جموع كثيرة من الصليبين خاصة وان جاى لوزجنان وكونراد دى مونتفرات قد صفيا مابينهما من خلافات وتعاونا معا في حصار عكا كذلك وصل امام عكا فردريك السوابى ببقايا الحملة الالمانية الفاشلة والتى انفصم عراها بعد غرق فردريك بربروسا . هذا الى جانب اساطيل المدن البحرية الايطالية جنوا وبيزا والبندقية التى كانت قد سمعت بالدعوة للحملة الصليبية الثالثة ، فصفوا مابينهم من خلافات واسرعوا للشام للاشتراك في حرب المسلمين . ويقدر بعض المؤرخين عدد الجموع الصليبية التى احتشدت امام عكا بأكثر من عشرين ألفاً . كما قدروا عدد سفنهم بما لايقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوروبية . وهذا العدد الكبير كان يزيد كثيراً على ماكان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحرى للعدو في بعض رسائله مثل قوله : « ومن خبر الكفار انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من اجاجه .. فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث

البحر عوضه ألفا » .

على أن صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء تجمعات العدو امام عكا ، بل سارع بمهاجمتهم ، ونجح في فتح الطريق الى المدينة لامدادها بالمؤن والاسلحة والرجال ، واظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعى الانتباه .

كذلك كان صلاح الدين يتصل بحامية المدينة عن طريق الحمام الزاجل ، أو عن طريق العوامين في البحر وهم مانعرفهم في الوقت الحالى باسم (الضفادع البشرية) ومن امثلتهم عيسى العوام الذى كان يشد على وسطه الرسائل المراد توصيلها الى حامية عكا وأكياس الذهب للانفاق منها على المجاهدين ، ثم يغوص في البحر ليلاً وفي غفلة من العدو ، ثم يخرج من الجانب الآخر من سفن العدو ، ويدخل عكا حيث يسلم مايحمله من الذهب والرسائل الى رجال الحامية .

وفى ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والرسائل كعادتة ، وغاص فى البحر ، ولم يعد أحد يسمع عنه خبر بعد ذلك ، فاعتقد البعض أنه فر بالذهب ، على حين اعتقد البعض الآخر بأنه وقع اسيراً في يد الاعداء . وبعد عدة أيام بينما الناس على ساحل البحر في عكا ، اذا بالبحر يقذف اليهم ميتاً غريقاً ، فنظروا إليه فاذا به عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه أكياس الذهب والرسائل كما هى ، وبذلك برأه الله سبحانه وتعالى مما نسب اليه من الخيانة والفرار بالذهب .

وعلى الرغم من الامدادات التى وصلت لصلاح الدين وهو امام عكا الا ان التفوق العددى كان للصليبيين . وقد أصبح رجال الحامية أعنى حامية عكا ، يشتكون مر الشكوى من مواصلة السهر والقتال ليلًا ونهاراً وطلبوا بالحاح سحبهم الى خارج عكا ووضع حامية اخرى جديدة ، وقد تم تجديد الحامية فى منتصف فبراير ١١٩١ ، ولكن هذه العملية لم تتم على الوجه الأكمل نظراً لما أحاط بها من ظروف عسيرة خاصة بحصار الصليبيين لعكا . ولم يستطع المسلمون ان يدخلوا الى عكا سوى عشرين اميرا بدلًا من الستين الذين تم سحبهم من عكا

ويرجع بعض المؤرخين السبب فى سقوط عكا فيما بعد الى الخطأ في تنفيذ هذه العملية بالذات وعدم اتمامها على الوجة الأكمل .

وقد توفيت الملكة سيبل زوجة جاى لوز جنان وهم محاصرين لعكا ، وهكذا فقد جاي لوز جنان أى حق له فى عرش مملكة بيت المقدس ، بعد وفاة زوجتة الملكة صاحبة الحق الشرعى ، لأنه كان يجلس على عرش مملكة بيت المقدس بصفته زوج الملكة وليس بصفته الشخصية .

وهكذا انتقل الحق في العرش الى اختها ايزابيلا ، وكانت ايزابيلا ، متزوجة من شخص ضعيف الشخصية وخامل يدعى اونفروى دى تورون ، فاتفق الفرسان الصليبيين على تطليق ايزابيلا من زوجها وتزويجها من رجل الساعة حينئذ لديهم وهو كونراد دى مونتفرات ، وقد تم ذلك بالفعل في نوفمبر ١١٩٠ . وهذا بطبيعة الحال مما اغضب جاى لوز جنان وأوجد فرقة وانقسام في صفوف الصليبيين ، ولكن ذلك سرعان ما انتهى بوصول فيليب اوجسطس ملك فرنسا الى الشام .

وقد وصل فيليب اوجسطس الى صور أولاً فرحب به قريبة كونراد دى مونتفرات وصحبه الى عكا ، وكان لوصول الملك فيليب الى عكا رد فعل كبير عند الصليبيين والمسلمين على حد سواء ، وفي الوقت الذى هلل فيه الصليبيين وابتهجوا لوصوله نظراً لمكانته الكبيرة عندهم . اذا بالمسلمين يعملون حساباً كبيراً لوصوله ، خاصة وانه وصل في الوقت الذى بدأ المسلمون فيه يضجرون من كثرة القتال وطول البقاء امام عكا ، فبدأ بعضهم ينسحب من امامها مثل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل .

ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ان وصل هو الآخر الى صور بعد ان ساقته الظروف لفتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها من يد حاكمها البيزنطى . وقد رفضت حامية صور استقباله بالمدينة وطلبت منه الاسراع الى عكا . وبعد وصوله الى عكا في ٨ يونيو ١١٩١ ، ازداد الصليبيون قوة وكثرة عددية ، ورغم ذلك فان المسلمين قد أبدوا بطولات وشجاعة نادرة ، مثال يعقوب الحلبى الذى خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسه) مشحونة بالآلات والميره والرجال لامداد حامية عكا ، فاعترضه ملك انجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التى

كانت تبلغ الاربعين قطعة بحرية ، فقاتلهم المسلمون قتالًا عنيفاً ، واحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها ، ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها ، قال مقدمها يعقوب الحلبي : « والله لا نقتل الا عن عز ، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً » . ثم حطموا جوانب البطسه ، بالمعاول حتى فتحوها ، فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وكان عددهم ستمائة وخمسون رجلاً ومافيها ولم يظفر العدو منها بشيء .

وقد مر الصليبيون هم الآخرون بظروف سيئة ، بعد أن اشتد الخلاف بين جاى لوز جنان وكونراد دى مونتفرات ، مما جعل كونراد ينسحب الى صور ، ومرض ريتشارد قلب الأسد ، وجرح فيليب اوجسطس ، ولكي يكسبوا الوقت حتى تتحسن ظروفهم ، اخذوا في مراسلة صلاح الدين شغلًا للوقت ، وظل ريتشارد ملك انجلترا يطلب من صلاح الدين الفاكهة والثلج التى احتاج اليها في مرضه ، وكان صلاح الدين يمده دائماً بما يطلبه .

وما ان تحسنت احوال الصليبيين حتى استأنفوا القتال من جديد بضراوة وعنف ، وقد ارسلت حامية عكا رسالة الى صلاح الدين عن طريق الحمام الزاجل جاء بها : « انا قد بلغ منا العجز غاية مابعدها الا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادى الاولى ٥٨٧ هـ/١١٩١ م) ان لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الامان ونسلم البلد » .

ولم تنجح جميع المحاولات التى قام بها صلاح الدين لانقاذ عكا ، واضطر الى الدخول في مفاوضات مع الصليبيين ناب عنه فيها أخوه العادل وناب عن الصليبيين الاسبتارية ، ولكن الصليبيون غالوا في مطالبهم وطالبوا برد جميع البلاد التى فتحها صلاح الدين بعد حطين واعادة صليب الصلبوت وكان من الطبيعي ان يرفض صلاح الدين مطالبهم هذه وبذلك انقطعت المفاوضات . وقد تدخل كونراد دى مونتفرات في الأمر وبدون موافقة صلاح الدين عقد اتفاقية مع حامية عكا ، وقد نصت الاتفاقية على السماح لحامية عكا بالخروج سالمة مقابل فدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار وتحرير ٢٥٠٠ من الاسرى الصليبيين ، ورد صليب الصلبوت. وهكذا تم للصليبيين الاستيلاء على عكا ودخلوها في يوليه ١١٩١ بعد

حصار دام مايقرب من العامين .

وبعد سقوط عكا في يد الصليبيين اعتذر فيليب اوجسطس ملك فرنسا بالمرض وغادر بلاد الشام الى برنديزى في ايطاليا في اغسطس ١١٩١ ، على حين استمر ريتشارد ملك انجلترا في الشام وقام بعدة محاولات لاسترداد بيت القدس ولكنه فشل ، ولم يستطع سوى الاستيلاء على ساحل فلسطين من عكا الى يافا .

وقد حاول ريتشارد ان يصل الى حل سلمى لمشكلة بيت المقدس فاقترح ان تتزوج اخته جوانا من العادل شقيق صلاح الدين ويحكمان معاً مملكة بيت المقدس الصليبية بحدودها التى كانت عليها قبل معركة حطين ١١٨٧ . وقد وافق صلاح الدين على هذا الاقتراح ووافق العادل أيضاً ، ولكن جوانا رفضت بعد أن حرضها رجال الدين ضد الزواج من مسلم . وكان ان اقترح ريتشارد ان يعتنق العادل المسيحية ، ولو تظاهراً ، حتى توافق جوانا ، ولكن صلاح الدين والعادل رفضا ذلك ، وهكذا انتهى هذا المشروع بالفشل .

ولما طالت اقامة ريتشارد بالشام واصابه المرض واضطربت احوال مملكة انجلترا نتيجة لغيابه عنها طوال هذه السنين منذ خرج من بلده في صيف ١١٩٠ . أخذ يلح على صلاح الدين من أجل الوصول الى اتفاق حتى يتمكن من مغادرة الشام والعودة الى وطنه ، واخيراً تم بينهما صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢ . ونص على ما يلى :

١ – أن يكون للصليبيين البلاد الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف .
٢ – تكون عسقلان للمسلمين .
٣ – تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين .
٤ – يكون للمسيحيين حرية الحج الى الاماكن المقدسة في بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .
٥ – أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر .

وهكذا تم الاتفاق أخيراً ، وعقب ذلك غادر ريتشارد الشام في ٩ أكتوبر

١١٩٢ في طريقه بحراً الى بلاده .

وبذلك انتهت قصة الحملة الصليبية الثالثة التى قامت أساساً من أجل استرداد بيت المقدس بعد أن فتحها صلاح الدين وحطم مملكة بيت المقدس الصليبية عقب انتصاره في معركة حطين ١١٨٧ م . ولكن هذه الحملة رغم اشتراك ثلاثة من كبار ملوك الغرب الاوروبى بها ، ورغم الاستعدادت المادية والبشرية التى اتيحت لها ، ورغم الظروف الصعبة التى مر بها صلاح الدين والمسلمون ، الا أنها لم تحقق الهدف الذى خرجت من أجل تحقيقه وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين ، ولذلك يمكننا القول أن هذه الحملة فشلت في تحقيق هدفها ، وبقيت مدينة بيت المقدس في حوزة المسلمين .

وفاة صلاح الدين والصراع بين الأيوبيين :

توفى صلاح الدين في اوائل مارس سنة ١١٩٣ ، وكانت وفاته وهو بدمشق بعد مرض قصير ألم به . ودفن هناك ومعه سيفه الذى طالما جاهد به أعداء الاسلام ، ليتوكأ عليه الى الجنة على حد تعبير المؤرخ أبو شامه .

أما المؤرخ ابن شداد فيصف حب صلاح الدين للجهاد وتفانيه في نصرة دين الله . فيقول : « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ماكان له حديث الا فيه ولا نظر الا في آلاته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنه وميسرة » .

وقد كان يوم وفاته يوم حزن وأسى بالنسبة للمسلمين وقد تمنى الكثير منهم ان يفتدوه بأنفسهم ، وقد اعترف المؤرخون الغربيون بقوة صلاح الدين وعدله وتسامحه بل وأكثر من ذلك لقد اعترفوا بانه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية بأجمعه ، ولاشك ان هذه شهادة طيبة للغاية خاصة اذا كانت صادرة من اعدائه ، ورغم ماحفل به عصر الحروب الصليبية من

شخصيات الاباطره والملوك الغربيين ، ولكن تصرفات صلاح الدين الذى اتسمت دائماً بالشهامة والمروءة والنبل والترفع عن الانتقام والرد بالمثل على تصرفات الصليبيين الهمجية ، كل ذلك جعل منه اعظم شخصية فى عصر الحروب الصليبية وبشهادة اعدائه .

على أنه ماكاد صلاح الدين يختفى من مسرح الاحداث ، حتى دب الخلاف والانقسام بين أفراد البيت الايوبى . فقد أنجب صلاح الدين سبعة عشر من الابناء ، وكان من الطبيعى ان يختص صلاح الدين ابنائه بحكم الأجزاء الرئيسية في دولته ، وقلد اخوته الذين كان أهم شخصية فيهم هو العادل ، الاجزاء الثانوية .

وعند وفاة صلاح الدين كان أكبر ابنائه ويسمى الافضل نور الدين على موجوداً مع ابيه بدمشق ، فاحتفظ بها وبالمدن الساحلية وبيت المقدس وبعلبك صرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم بالقرب من حدود مصر . وكان صلاح الدين قد أوصى بالسلطنة من بعده لابنه الأفضل بمعنى أن تكون له السلطة العليا في باقى أنحاء الدولة الايوبية .

أما الابن الثانى لصلاح الدين وهو العزيز عثمان ، فكان في مصر وقت وفاة أبيه ، لذلك فقد احتفظ بها . أما الابن الثالث وهو الظاهر غازى ، فقد أخذ حلب وشمال الشام وكان صلاح الدين قد منح اخوه العادل بعض الاقطاعات الثانوية المتفرقة مثل الاردن والكرك الى جانب الجزيرة وديار بكر .

كان هؤلاء اهم الشخصيات بعد صلاح الدين أما باقى ابنائه واخوته فقد أخذوا اقطاعات صغيرة .

ما يهمنا في هذا الصدد ان الملك الافضل وهو الابن الأكبر لصلاح الدين لم يكن بالشخصية التى تصلح لأن تتولى السلطنة بعد والده صلاح الدين العظيم ، فقد كان الأفضل ضعيف الشخصية سيء السيرة والسلوك وقد احتجب عن الرعية وقضى وقته كله في شرب الخمر والاستماع الى الاغانى واللهو . وشتان بين شخصية صلاح الدين وشخصية ابنه الأفضل

وقد أبعد الأفضل رجال ابيه صلاح الدين من الامراء والوزراء . الذين ساءهم تصرفات الأفضل ، فلجأوا الى اخيه الملك العزيز عثمان حاكم مصر ، واخذوا يثيرونه على اخيه الافضل ، وكان ان استجاب لهم العزيز وخرج على رأس جيشه واتجه الى دمشق حيث فرض الحصار عليها . وقد لجأ الافضل الى عمه العادل يستنجد به ، وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها العادل ، ليتدخل في شئون ابناء صلاح الدين ويحركهم جميعاً لخدمة اغراضه الخاصة ، لاسيما وانه كما وصفه المؤرخون كان « ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً ذا أناة وتؤده » . وقد استجاب العادل لنداء الأفضل وجمع الامراء من بيت صلاح الدين ووقفوا جميعاً في وجه العزيز عثمان ، الذى ادرك تماماً أنه لا قبل له بمواجهة هؤلاء مجتمعين ، فاجتمع مع العادل بالقرب من دمشق وطيب العادل خاطره وزوجه من ابنته ، وعاد العزيز الى مصر .

على أن الافضل لم يرتدع ، وانما استمر في لهوه وتشاغله عن الرعية وعن تصريف أمورها بنفسه بعد أن أوكل هذه المهمة لوزيره ضياء الدين ابن الاثير وهو شقيق المؤرخ المشهور . فعاود العزيز عثمان خروجه من مصر الى دمشق بغرض ضمها لممتلكاته وابعاد الأفضل ، وقد استنجد الافضل بعمه العادل للمرة الثانية ، فحرض امراء العزيز على تركه والعودة لمصر ، وهكذا انفض الامراء من حول العزيز الذى وجد نفسه وحيداً ، فاضطر للعودة الى مصر .

وقد خشى الأفضل ان يعاود اخيه الكرة ويحاربه من جديد ، فاتفق مع عمه العادل على أن يذهبا بجيوشهما الى مصر ويستوليا عليها وتكون من نصيب الأفضل على أن يعطى عمه العادل حكم دمشق . وبالفعل خرج الاثنان لتنفيذ الاتفاق السابق ودخلا الاراضى المصرية ونزلا على بلبيس محاصرين لها ، ولكن العادل خشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فارسل سراً الى العزيز وطلب منه الثبات وتعهد له بأنه سيعمل على عودة الافضل لدمشق ، وقد كان فعاد الأفضل لدمشق دون ان يحقق أمله في الاستئثار بحكم مصر دون أخيه العزيز .

وهكذا أصبح العادل يمسك بالموقف كله بين يديه ، ويحرك الاخوة أبناء

صلاح الدين كيفما أراد . وحين تمادى الأفضل في طيشه ولهوه وضج الناس بالشكوى ، ذهب العادل الى العزيز في مصر واتفقا على خلع الأفضل والاستيلاء على ملكه بدمشق ، وقد خرج الاثنان في يونيو ١١٩٦ لتحقيق هذا الاتفاق ودخلا دمشق دون مقاومة تذكر وحل العادل محل الأفضل في حكم دمشق . على حين اخذ العزيز لقب السلطنة وظل يحكم مصر .

ولم يلبث العزيز عثمان ان توفى فى نوفمبر ١١٩٨ ، وكان أكبر أبنائه لايزال طفلاً صغيراً في العاشرة من عمره ، فأرسل فخر الدين جهاركس المسيطر على الأمور فى مصر الى العادل يستدعيه ليسلم له مصر ، فى حين ان المماليك الأسدية والصالحية خشوا قوة شخصية العادل واستبداده بالامور ، ورأوا أن يسلموا مصر للأفضل ، وهو المعروف بضعف شخصيتة وتشاغلة باللهو ، حتى تتاح لهم الفرصة ليفعل كل منهم ما يراه فى ظل حكمه . وبالفعل وصل الأفضل الى مصر وتسلم مقاليد الأمور بها ،وقد أراد الأفضل الانتقام من عمه العادل ، فاتفق مع اخيه الملك الظاهر حاكم حلب لأخذ دمشق من عمهما العادل ، الذى كان غائباً عن دمشق يحاصر ماردين فى ديار بكر . ولكن العادل حين علم بمؤامرة ابناء اخيه ضده عاد مسرعاً الى دمشق ودخلها قبل وصولهما اليها ، وأخذ يعد العدة للدفاع عن دمشق . وقد وصل الأفضل بجيوشه من مصر والظاهر بجيوشه من حلب ، وحاصرا دمشق لمدة ستة أشهر دون أن يقوما بمحاولة جدية لاقتحامها . وقد استعمل العادل ذكائه ودهائه لبذر بذور الخلاف بين الأخوين ، الى جانب استمالته لامراء الأفضل والظاهر ، فانضموا الى جانب العادل ، وانفضوا عن الأفضل والظاهر . وانتهى الأمر برفعهما الحصار عن دمشق والعودة الى ديارهما .

وقد طارد العادل الأفضل حتى مصر وأوقع به هزيمة كبيرة بالقرب من بلبيس ، ثم لحق به الى القاهرة واجبره على التخلى عن حكم مصر وتركها للعادل ، أما هو أى الأفضل فقد انسحب الى اقطاعه الصغير فى حوران .

وقد قام الأفضل بالاتفاق مع شقيقه الظاهر ، وتعاونا معاً ضد العادل ، وحاصرا دمشق ، وقد خرج العادل من مصر على وجه السرعة ، حيث بذر

بذور الخلاف كعادته بين الشقيقين ، وكان من نتيجة ذلك ان رحل الظاهر الى حلب ، أما الأفضل فقد عاقبه العادل وسحب منه حوران واقطعه سميساط لاغير .

وهكذا دان للعادل ملك مصر ودمشق وبيت المقدس بفضل حيلته ودهائه ، وان كان صلاح الدين الايوبي قد خشي من طموح العادل وحاول ان يقضي على طموحه هذا باعطائه اقطاعاً ثانوياً لا يتناسب مع اطماعه ، الا أن العادل نجح عن طريق الصبر والمكر والخديعة ان يحقق اطماعه في ملك صلاح الدين ، وصفى له الجو بعد ان تخلص من الأفضل وخلصه الموت من العزيز عثمان .

وقد قسم العادل ملكه على ابنائه ، فاعطى الكامل حكم مصر ، والمعظم عيسى دمشق ، والاشراف موسى حران ، والأوحد ميافارقين ، أما العادل فكان له الاشراف العام والتام على جميع تلك الممالك .

واذا كان العادل قد نجح في توحيد مصر والشام مرة أخرى ، الا أنه وقع عليه عبء مواجهة الصليبيين ، وحماية الأراضي الاسلامية من غاراتهم عليها ، كما سنرى فيما بعد .

مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية :

رغم ان الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في استرداد بيت المقدس من يد المسلمين ، الا أنها نجحت في استرداد الساحل القديم لمملكة بيت المقدس بما فيه حيفا وقيسارية وارسوف ويافا وعكا ، التى كانت أهم مدينة به ، وصارت قاعدة مملكة بيت المقدس في عهدها الجديد ، ورغم عدم وجود مدينة بيت المقدس نفسها في يد الصليبيين الا انهم أصروا على استمرار احتفاظ المملكة باسمها القديم (مملكة بيت المقدس) . وهذا يدل على تصميمهم على استعادة مدينة بيت المقدس لحوزتهم من جديد .

وهكذا كانت الصفة البحرية هى الطابع المميز لهذه المملكة ، بعد أن فقدت كل ماكان لها من ممتلكات داخل فلسطين ، وأصبحت لاتضم سوى المدن الساحلية بما فيها صور ، وقد كان لذلك نتيجة حتمية هي اعتماد هذه المملكة على الغرب الاوروبى وخاصة اساطيل المدن البحرية الايطالية أو الثلاثة الكبار كما كان يطلق عليهم في ذلك الحين وهم جنوا وبيزا والبندقية .

وكان أول من حكم هذه المملكة في عهدها الجديد هو هنرى دى شامبنى وهو ابن أخت الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، والزوج الثالث لايزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية ، والجدير بالذكر ان هنرى دى شامبنى لم يتوج ملكاً على تلك المملكة ، والسبب في ذلك غير معروف ، وربما رأى هو تأجيل هذا التتويج حتى استرداد بيت المقدس ويتوج بها ، وعلى أية حال فقد توفى هنرى دى شامبنى في ١٠ سبتمبر ١١٩٧ ، وجرى البحث عن زوج رابع لايزابيلا وكان أن تم الاتفاق على تزويجها من عمورى لوزجنان ملك قبرص ، وهكذا تم توحيد عرش مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية . على أن هذا التوحيد لم يلبث أن انفصمت عراه ، بعد وفاة عمورى لوز جنان ، وبذلك عاد عرش مملكة بيت المقدس الى صاحبته ايزابيلا ثم الى كبرى بناتها من هنرى دى شامبنى وتدعى مارى . ولما كانت مارى لاتزال صغيرة السن اذ كانت في الرابعة عشر من عمرها فقد وضعت تحت وصاية حنادى ابلين حاكم بيروت . وفى عام ١٢٠٨ بلغت مارى سن الرشد

وبدأت مشكلة البحث عن عريس مناسب ، ليس لها ، وانما مناسب للمملكة ، أي تكون له من الخبرة والكفاية مايمكنه من حماية مصالح الصليبيين بالشام ، وهو مانطلق عليه اسم (الزواج السياسي) ، وقد تم عقد مجلس في عكا برئاسة البطريرك لبحث هذا الموضوع ، واجتمع رأي المجتمعين على الرجوع الى فيليب اوجسطس ملك فرنسا ليتولى اختيار الزوج المناسب . وللأسف فقد وقع اختيار فيليب على عجوز مفلس يدعى حنا دى برين وكان في الستين من عمره ليتزوج من مارى التى لم تبلغ العشرين بعد . ولكن ملك فرنسا وجد في حنا دى برين الصفات اللازمة للصليبيين بالشام . وفي سبتمبر ١٢١٠ وصل العريس المفلس الى عكا بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال ، وقد استقبله الصليبيون بجميع طوائفهم بالترحاب ، وتم زواجه من مارى وتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كاتدرائية صور في اوائل اكتوبر ١٢١٠ .

ولم يمتد العمر بمارى مع هذا الكهل لأكثر من سنتين فتوفيت في عام ١٢١٢ ، حزينة على شبابها الضائع ، وبعد أن انجبت طفلة اسمتها ايزابيلا أو يولاند . وهكذا اصبح حنا دى برين غير ذى صفة بالنسبة للصليبيين ، لانه تولى الحكم بصفته زوجاً للملكة صاحبة الحق الشرعي ، فلما ماتت فقد صفته هذه واصبح لا شيء . على انه تم الاتفاق سريعاً على ان يتولى حنا دى برين الوصاية على ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد . وبذلك استمر حنا دى برين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ولكن بصفته وصى على ابنته يولاند صاحبة الحق الشرعي . وقد قام حنا دى برين هذا بدور كبير في الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، كما سنرى خلال عرضنا التالى للاحداث .

الفصـل الرابع

الأيوبيون والحملة الصليبية الخامسة

لقد ادرك الصليبيون منذ أواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حقيقة هامة لا جدال فيها ، وهى أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن يحرزوا أنتصاراتهم على الصليبيين ويسترجعوا بيت المقدس من ايديهم الا بعد سيطرتهم على مصر التى أصبحت على عهد الأيوبيين معقل الاسلام وحصنه المنيع ، ومصدر الامداد الوفير من الرجال والمال والميره والسلاح ، وقد انحصر هدف الصليبيين منذ ذلك الحين فى ازالة قوة مصر والقضاء عليها حتى يمكنهم عن طريقها الوصول الى بيت المقدس ، وبمعنى آخر آمنوا ايمانا عميقاً بأن مفاتيح بيت المقدس موجودة بالقاهرة وأن عليهم الاستيلاء على مصر بوصفها الطريق الطبيعى الذى لا طريق بعده للوصول الى بيت المقدس . وقد اخذوا يشبهون مصر تشبيهات توضح بجلاء ايمانهم هذا ، فهم حيناً يشبهونها برأس الأفعى ، وانه اذا تم لهم القضاء على هذا الرأس ، فان الجسد كله سيهوى بين أيديهم ، ومرة أخرى بالقلب فى الجسد ، واذا توقف القلب انتهى أمر الجسد ، الى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى امتلأت بها كتب دعاة الحروب الصليبية . أما المؤرخون المسلمون فقد ادركوا هم الآخرون هذه الحقيقة وفسروا فى ضوئها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى . فيقول المؤرخ ابن واصل أن الصليبيين تشاوروا بخصوص اتجاه الحملة الصليبية الخامسة وان ذوى الرأى منهم قد اشاروا بقصد مصر أولاً وقالوا : « ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة ان نقصد أولاً مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد » .

وقد اثبتت لهم تجاربهم السابقة والتى تمثلت فى الحملة الصليبية الثالثة عدم جدوى محاولة استرداد بيت المقدس عن طريق الشام لذلك فقد ارادوا وبصفة عملية ان يستردوا بيت المقدس عن طريق مصر ، وكان ذلك هدف الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن هذه الحملة لاسباب معينة انحرفت واتجهت ضد القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ م . واسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة

تينية[1] . وهكذا اصيب البابا اينوسنت الثالث بخيبة أمل كبيرة بعد أن خرج ن تجربة الحملة الصليبية الرابعة بحقيقة هامة هي ان الصليبيين بدأت تحركهم عوامل أخرى غير العامل الديني وان السيطرة على الحركة الصليبية آلت الى اشخاص آخرين غير البابوية .

والواقع أن البابا اينوسنت الثالث يعتبر المسئول الأول عن الدعوة للحملة الصليبية الخامسة[2] ، لذا ينبغي الالمان بنبذه عن هذا البابا وجهوده في الدعوة للحملة الصليبية الجديدة .

يعتبر البابا اينوسنت الثالث واحد من ألمع البابوات الذين تولوا منصب البابوية في العصور الوسطى ، واسمه الحقيقي لوثر أوف سيجني ، وهو ينتمي الى عائلة رومانية عريقة هي عائلة كونتي سادة مقاطعة سيجني ، وكان يبلغ السابعة والثلاثين من العمر حين تولى منصب البابوية . وقد درس اللاهوت في باريس على يد Peter of Grbeil وهو واحد من الرجال اللامعين في هذا العلم ، كما درس أيضاً القانون في بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون في ايطاليا وهو Uguccio of Ferrora .

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث في هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسي للبابوية في ايطاليا وعبر جبال الألب ، وليحمي السلطة الاكليركية من جور السلطة العلمانية ، وفي ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية في الغرب الأوروبي واديرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . وكان من رأيه ان البابا هو القاضي الأعلى في الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء ، فهو يمثل القانون الجنائي في الامور المدنية ، كما يمثل القانون الكنسي في الأمور الدينية . ولذلك اصبح البابا

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة راجع :
اسمت غنيم . الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، دار المعارف ١٩٨٢ .

(٢) بخصوص الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، يمكن الرجوع لكتاب الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران ، وهو دراسة تحليلية مرتكزة على المصادر الأصلية للحملة .
انظر : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسه ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٨ .

هو الفيصل الاعلى للمجتمع المسيحى ، والمصدر الذى تنبع منه العدالة ، والمحكمة العليا التى يرفع اليها الناس شكاواهم واصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها .

أما الابرشية المقدسة لروما فهى من وجهة نظره « تجلس في مكان متوسط بين الله والبشر ، هى أدنى من الله ، ولكنها أعلى من البشر » .

وبناء على سلطة البابا المطلقة في كل شيء التى نادى بها اينوسنت الثالث كان أول بابا يدعى الحق المطلق في انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط وقد اصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة ، هى الضرائب التى اشترك في دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام . وقد ارتبطت هذه الضرائب في تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبى . وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة في هذا الشأن

عندما أصدر أمراً سنة ١١٩٩ الى جميع الاساقفة بان يرسلوا الى البابوية جزءاً من ازبعين ($\frac{١}{٤٠}$) من دخل الأسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها واقطاعاتها هذا غير مجموع الضرائب الاخرى التى ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين في مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك اصبحت البابوية في القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية مايعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين .

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ماكانت تصبو اليه البابوية من سمو في ضوء مبادىء جريجورى السابع والاسكندر الثالث ، وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس وبذلك عاد الى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية . وقد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه محو آثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين في الشرق ، تلك الانتصارات التى توجت بمعركة حطين في

١١٨٧ ، والعمل على إسترجاع بيت المقدس من يد المسلمين عن طريق الاستيلاء أولاً على مصر . وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير دعا في منتصف سنة ١١٩٨ الى الاعداد لحملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة . وقد آل أمرها الى الفشل الذريع ، بعد أن اتجهت الى القسطنطينية بدلاً من مصر ، وبعد أن حاربت المسيحيين أنفسهم سواء في زارا أو في القسطنطينية بدلاً من محاربة المسلمين والعمل على استرداد بيت المقدس من أيديهم . وهكذا أصبح على اينوسنت الثالث أن يقوم بالدعوة لحملة صليبية جديدة يعوض بها الفشل الذى حاق بالحملة الرابعة ، فكان أن دعا الى الحملة الجديدة التى عرفت باسم الحملة الصليبية الخامسة .

وقد دعا البابا اينوسنت الثالث الى هذه الحملة الصليبية الجديدة في المؤتمر الدينى الذى عقد في كنيسة لاتيران في روما في ١١ نوفمبر ١٢١٥ ، وقد بدأ المؤتمر بالخطبة التى ألقاها البابا اينوسنت الثالث والتى عبر فيها عما تقاسيه مدينة بيت المقدس من انتهاكات للاماكن المسيحية المقدسة من جانب المسلمين ، واشار الى انه قد آن الآوان للقضاء على المسلمين وطالب الحاضرين - وكان المؤتمر يضم أعداداً كبيرة من رجال الدين فضلاً عن مندوبين لملوك المانيا وانجلترا وفرنسا واسبانيا وهنغاريا والمملكة اللاتينية في القسطنطينية - طالب جميع هؤلاء ببذل المساعدة للبابوية لتتمكن من القيام بهذا العمل المقدس

ولقد سمح لمندوب مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية والتى كان على رأسها في ذلك الوقت حنا دى برين بالكلام في المؤتمر ، فأخذ يفيض في وصف الحالة السيئة التى وصل اليها الصليبيون في الشرق ، وتمت مناقشة عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون مصر هى وجهة الحملة الصليبية الجديدة .

وقد تحدد يوم أول يونيو عام ١٢١٧ موعداً لابحار الحملة على أن يكون الابحار من أى مكان يقع على خليج مسينا .

وقد بدأ البابا حملة التبرعات للحملة بأن قدم ثلاثين ألف جنيه بالاضافة الى ثلاثة آلاف مارك فضة وقد طالب البابا بأن يدفع رجال الدين ١/١٠ دخلهم ،

أما العلمانيون الذين لم يحملوا الصليب ولم يشتركوا في الحملة فعليهم ان يمدوا اخوانهم الصليبيين في الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث سنوات .

.وقد بذل البابا اينوسنت امتيازات روحية هامة للمشتركين في هذه الحملة الصليبية الجديدة ، فقد منح البابا الغفران التام من الخطايا لكل من يقدمون سفنهم لحمل الصليبيين المشتركين في الحملة ، وكذلك لكل من يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة . أما الذين سيشتركون في الحملة فقد تقرر إعفاؤهم من دفع الضرائب المقررة عليهم بمجرد حملهم الصليب ، ووضع املاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم وتأجيل دفع ماعليهم من ديون ، وهذه الامتيازات تشبه الى حد كبير الامتيازات التي منحها البابا اربان الثاني للمشتركين في الحملة الأولى .

هذا الى جانب القرارات الأخرى التى اتخذت بخصوص هذه الحملة من منع الاتجار مع المسلمين وتهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته ، وقد اعطى الحق لمن يقبض على أى تاجر لاتينى يتعامل مع المسلمين ان يعامله معاملة الاسرى .

والمقصود من ذلك بطبيعة الحال منع تزويد المسلمين بالأخشاب والحديد اللازمة لهم والتى كان المسلمون يحتاجون اليها لبناء السفن . وكثيراً ماناداى البابوات بمثل هذا التحريم ، خاصة على المدن البحرية الايطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية ، ولكن جهود البابوات ذهبت ادراج الرياح لأن هذه المدن كانت لا تهتم بالصالح الصليبى قدر اهتمامها بمصالحها التجارية البحتة ، واذا تعارضت مصالحها المادية مع الصالح الصليبى ، قذفت بالصالح الصليبى عرض الحائط ، وليذهب هذا الصالح الصليبى الى الجحيم ، أما هى فلا تخسر تجارتها ، ويكفى أن نوضح في هذا المجال ان شعار البنادقة كان « نحن أولاً بنادقة ، وبعد ذلك مسيحيون » .

وقد انتشر الدعاة للحملة الصليبية الجديدة في انحاء الغرب الاوربى ، من أجل العمل على حشد أكبر عدد ممكن من النبلاء والفرسان والعامة ، للانخراط في سلك هذه الحملة الصليبية .

على أن الأجل لم يمتد بالبابا اينوسنت الثالث ليرى نتيجة جهوده في الحملة

الصليبية الخامسة ، فقد توفى في بروجيا في شمال ايطاليا في عام ١٢١٦ . وقد خلفه الكاردينال سنسيوس تحت اسم البابا هونوريوس الثالث . الذى أخذ على عاتقه اكمال العمل الصليبي الذى دعا اليه سلفه السابق البابا اينوسنت الثالث .

وقد خرجت الحملة الصليبية الى بلاد الشام بعضها عن طريق البحر بمساعدة سفن البندقية ، وقد قبض البنادقة ثمن نقل الصليبيين بسفنهم ، وكان هذا الثمن هو تنازل ملك هنغاريا عن مدينة زارا على ساحل والماشيا نهائياً للبنادقة واطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية . كذلك تم الاتفاق على أن يدفع الصليبيون مبلغاً من المال مقابل كل سفينة تمدهم بها البندقية .

أما الجزء الآخر فقد اتخذ طريق البر ، واجتمع الجميع في عكا وكانت القوات الصليبية تحت قيادة ملك هنغاريا ويدعى اندرو الثانى (١٢٠٥ - ١٢٣٥) .

وفي أثناء ذلك بلغت الانباء الملك العادل بنزول الصليبيين بالشام واستعدادهم لغزو بلاد المسلمين . فغادر مصر الى الشام ، وبعد عدة إشتباكات بين القوات الاسلامية والصليبية في الشام لم تسفر عن تحقيق مكاسب هامة للصليبيين اعلن الملك اندرو عزمه على العودة لبلاده وقد هدده بطريرك مملكة بيت المقدس الاسمية بتوقيع قرار الحرمان عليه اذا تخلى عن الصليبيين في هذا الوقت الحرج وقبل قيامهم بغزو مصر ، ولكن اندرو لم يعبأ بهذه التهديدات واتخذ طريقه من عكا الى ارمينيا وعاد الى بلاده في أوائل عام ١٢٢٨ .

وهكذا عاد قائد الحملة الملك الهنغارى الى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده الهنغاريين دون ان يشترك مع الصليبيين في عمل حاسم ضد المسلمين سواء في الشام أو في هجومهم المرتقب ضد مصر ..

على ان الصليبيين بالشام لم يلبثوا ان عوضوا عن النقص الذى حدث في قوات الحملة عن طريق وصول أعداد كبيرة من المحاربين القادمين من أوروبا ، فقد وصلت اليهم قوات من الجنود الاسكندنافيين في أوائل مايو ١٢١٨ وصل

عددهم الى حوالى ثلاثين ألف مقاتل ، كما وصلتهم قوات أخرى تحت قيادة هنرى كونت هولندا . وهكذا تجمع بالشام أعداد كبيرة من القوات الصليبية المحاربة بالاضافة الى قوات الامارات الصليبية بالشام وعلى رأسها الفرسان الداوية والاسبتارية .

وقد عقد ملك بيت المقدس حنا دى برين مجلساً لبحث الأمور الخاصة بالهجوم على مصر ، ومكان نزول القوات الصليبية المهاجمة وكيفية تزويدها بالمؤن ، واعداد سفن النقل وغيرها من الأمور اللازمة لهذا العمل . وقد تقرر أن تكون مدينة دمياط هى المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه ، وقد تم اختيار مدينة دمياط بالذات لعدة أمور ، أولاً لقربها من مراكز الصليبيين في الشام وخاصة عكا ، كما أنها على حد تعبيرهم كانت قفل الديار المصرية وانه يمكن عن طريقها الوصول الى القاهرةالعاصمة ، كما أنها احدى ثلاث مدن هامة بمصر والمدينتان الاخرتان هما الاسكندرية والقاهرة ، وأن سقوط أى مدينة من هذه المدن الثلاث يعنى سقوط مصر كلها .

وكانت مدينة دمياط آنذاك تقع الى الشمال من دمياط الحالية ، وتبعد عن البحر الابيض المتوسط بحوالى ميلين ، أما بالنسبة لنهر النيل فقد كانت تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط . وهكذا اصبحت المدينة كشبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شمالاً ونهر النيل غرباً وبحيرة تنيس شرقاً . ونظراً لأن المياه تحيط بدمياط من ثلاث جهات فقد كان ذلك مما يخدم الحملة عن طريق انتفاعها بالاسماك التى يمكن اصطيادها من مياه النيل أو البحيرة أو البحر المتوسط في امداد الحملة بالغذاء اللازم لها . وكذلك الاراضى الزراعية القريبة من دمياط كان مما يوفر للحملة الامداد من الخضروات والفاكهة . هذا الى جانب ان دمياط كانت ميناء بحرياً هاماً وكانت السفن التجارية القادمة من الهند تمر على ميناء دمياط وهى في طريقها الى سواحل الشام أو أوروبا وتدفع ضرائب المرور . ونظراً لأهمية موقع دمياط بالنسبة لباقى البلاد المصرية ، وتعرضها نتيجة لذلك للهجوم المستمر من جانب البيزنطيين والصليبيين ، لهذا كله فقد لقيت دمياط العناية من جانب الأيوبيين وعملوا على تحصينها ، وتقوية سورها

وحفر خندق يحيط بالمدينة . كما تم العمل على اعاقة أى سفن للعدو تحاول الدخول عن طريق النيل الى داخل البلاد المصرية ، وذلك عن طريق مد سلاسل من الحديد عظيمة القدر تمتد بعرض مجرى النيل . هذا بالاضافة الى برج السلسلة وهو حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها ، وكان يحرس هذا البرج رجال أشداء مزودون بالسلاح ، وكان البرج يتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذى في الوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج . ويعلو البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة .

وفي يوم ٢٤ مايو ١٢١٨ تحركت سفن الحملة الصليبية في طريقها الى دمياط على أن يلحق بها ملك بيت المقدس وهو حنا دى برين وقد وصلت هذه السفن الى دمياط في ٢٧ مايو ١٢١٨ وقد تمكن الصليبيون من النزول على الضفة الاخرى للنيل المقابلة لمدينة دمياط وكانت تعرف باسم جيزة دمياط وقد نزلوا على هذا البر دون أن يجدوا أمامهم أية عوائق تعوقهم ، نظراً لأن الملك العادل الايوبى لم يكن يعتقد أن تكون دمياط هى هدف الحملة الصليبية الجديدة وبالتالى لم يتخذ أية اجراءات دفاعية ضد الصليبيين في هذه المنطقة . ولم يلبث الملك حنا دى برين ان لحق بالحملة التى عسكرت في منطقة جيزة دمياط . وقد سارت الحملة سفنها في النيل وفرسانها على الشاطىء حتى وصلوا الى السلسلة التى وقفت حائلاً أمام تقدم سفنهم في النيل وبالتالى الوصول الى دمياط سواء من ناحية النيل أو من ناحية البر . لذلك كان عليهم أولاً وقبل كل شيء مهمة عسيرة هى تحطيم تلك السلسلة والاستيلاء على برج السلسلة .

نترك الصليبيين يحاولون التخلص من هذه العوائق ، وننتقل الى الجانب الاسلامى ممثلاً في أهالى دمياط وفي الايوبيين المسيطرين على مصر .

فيما يتعلق بأهالى دمياط فقد أخذوا يعدون أنفسهم لحصار طويل الأمد مما يدل على أنهم عزموا على الدفاع عن مدينتهم وعدم تسليمها للقوات الصليبية المهاجمة . فقام الاهالى بتخزين المؤن اللازمة ، كما أرسلوا الى الملك الكامل الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل واخبروه بنزول الصليبيين في جيزة دمياط ، وقد غادر الكامل على الفور القاهرة واتخذ طريقه الى دمياط على

رأس جيشه وما انضم اليه من العربان ، وعسكر في جنوبي دمياط في مكان يعرف بالعادلية ، كما اتخذ الاسطول طريقه كذلك في مياه النيل الى دمياط واستقر في شارمساح (وهي قرية كبيرة بينها وبين دمياط حوالى ٣٨ كيلومتر) . وقد كان هدف الكامل في ذلك الوقت العمل على عدم تمكين الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع السلسلة التى تمتد بعرض النيل .

أما بالنسبة للملك العادل الذى كان موجوداً آنذاك بالشام فقد أخذ يغير بالاستعانة بابنائه المعظم عيسى والاشرف موسى على املاك الصليبيين في الشام عله ينجح في شغل الصليبيين عن مصر .

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الصليبيين والمسلمين في مصر ولكنها لم تسفر عن نتائج فعالة ، وقام الصليبيون كذلك بالعديد من المحاولات لقطع السلسلة والاستيلاء على البرج ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع وانزلت بهم خسائر جسيمة في الارواح نتيجة لاستبسال المدافعين المسلمين في حماية البرج والدفاع عن السلسلة .

وأخيراً وفي ٢٤ أغسطس ١٢١٨ نجح الصليبيون في اقتحام البرج وقتل من فيه والاستيلاء عليه وذلك بعد قتال دام حوالى الاربعة أشهر وعن طريق استيلائهم على هذا البرج تمكنوا من تحطيم السلسلة وتسيير سفنهم في مجرى النيل

وقد كان إستيلاء الصليبيين على البرج وقطع السلسلة بمثابة صدمة عنيفة اصابت الأهالى والايوبيين لدرجة أن الملك العادل حين علم بذلك دق بيده على صدره في حسرة وألم ومرض من ساعته ولم يلبث أن توفى في ٣١ أغسطس ١٢١٨ ، ودفن في دمشق .

وقد استقر كل واحد من ابنائه في المملكة التى منحها أياها والده قبل وفاته ، فكان الكامل في مصر ، والمعظم عيسى في دمشق ، والاشرف موسى في حران ، والاوحد في ميافارقين

وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على صمودهم في وجه الصليبيين ، لأنه لم تقم بينهم الخلافات التقليدية التي تحدث عادة بين الأبناء على الميراث ، فاتفقوا واتحدوا معاً في مواجهة العدو الجاثم على قلب مصر وقتذاك .

وهكذا وقع على الملك الكامل بعد ان صارت مصر ملكاً خالصاً له بعد وفاة والده ، عبء مواجهة الصليبيين وابعادهم عن بلاده . وقد بذل كل جهده في محاولة عرقلة الصليبيين عن الوصول الى القاهرة عن طريق النيل ، فبنى جسراً عظيماً بعرض مجرى النيل وذلك عوضاً عن السلسلة التي حطمها الصليبيون ، ولكنهم نجحوا أيضاً في تحطيم الجسر ، عند ذلك لجأ الى حيلة أخرى وهي أن أغرق بعض السفن عمداً وأيضاً بعرض مجرى النيل حتى تعوق تقدم سفن الصليبيين ، وقد نجحت هذه الحيلة في تحقيق الهدف منها واعاقت سفن الصليبيين عن مواصلة السير في النيل في اتجاه القاهرة ، وكان ذلك مما أعطى للمسلمين فرصة السيطرة على مجرى النيل .

واذا كان الكثير من الصليبيين قد اعتقدوا بعد سقوط برج السلسلة في ايديهم وتحطيمهم للسلسلة انهم قد وفوا بقسمهم وقاموا بمهمتهم خير قيام وان البلاد المصرية لم تلبث ان تسقط في أيدى الصليبيين ، فان احلامهم هذه لم تتحقق وانما كان سقوط برج السلسلة في أيديهم بداية الكوارث التي حاقت بالحملة الصليبية الخامسة ، لأن كثيراً من الصليبيين قد غادروا الاراضي المصرية الى غرب أوروبا وتركوا اخوانهم أمام دمياط ، اعتقاداً منهم ان الأمر صار هيناً بسيطاً وان مصر ستسقط بأسرها في أيدى اخوانهم انه لا ضرورة اذن لتواجدهم . وقد كان ذلك مما عرقل نشاط باقي قوات الحملة الصليبية الخامسة وظلت قواتها في حالة جمود وركود في انتظار وصول امدادات جديدة تصلهم من الغرب الاوروبي . وقد اعطت فترة الركود هذه الفرصة للايوبيين لتنظيم قواتهم والتقاط انفاسهم بعد كارثة سقوط برج السلسلة في ايدى الصليبيين . على أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، ذلك أن الامدادات العسكرية الصليبية لم تلبث أن وصلت الى جيزة دمياط باعداد كبيرة وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس وهو نائب البابا في الحملة . والواقع أن هذا

الشخص سيسبب للحملة الكثير من المتاعب وسيكون من أهم أسباب فشلها .

. ذلك انه بعد وصول بلاجيوس أصبح هناك صراعاً على السلطة بينه وبين قائد الحملة حنا دى برين ، وكان ذلك الصراع بسبب ما اتصف به بلاجيوس من التعصب والغطرسة والتعالى ، وقد أخذ يحقر من شأن حنا دى برين وأعلن أن الصليبيين هم في المقام الأول جنود الكنيسة ولذلك يجب عليهم ألا يخضعوا لأى قائد علمانى ، بل أن يخضعوا له فقط باعتباره ممثلاً للبابا ونائباً عنه في الحملة . وقد كسب بلاجيوس تأييد رجال الدين على حين انضم القادة العسكريين الى جانب حنا دى برين ، وهكذا لم يكد بلاجيوس يصل الى جيرة دمياط حتى بدأ يثير المشاكل ويبذر بذور الانقسام في المعسكر الصليبى ، وكان هذا الانقسام في صالح المسلمين بطبيعة الحال .

وقد جرت بعض الاشتباكات بين القوات الايوبية بقيادة الملك الكامل الذى كان لايزال معسكراً عند العادلية ،وبين الصليبيين تراوحت بين النصر والهزيمة لكلا الطرفين .

على أن المعسكر الاسلامى لم يلبث هو الآخر ان تعرض لبعض الاضطرابات ، ذلك ان الكامل تعرض لمؤامرة من بعض كبار امرائه وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب ، الذى أراد خلع الملك الكامل وتنصيب شقيقه الفائز بدلاً منه ، ولاشك في ان ابن المشطوب قد رغب في التخلص من الكامل واستبداله بشقيقه الفائز لصغر سن الفائز ، وعدم خبرته بالأمور مما يتيح لابن المشطوب السيطرة على الحكم في ظل الفائز الضعيف .

المهم أن اخبار هذه المؤامرة قد وصلت الى الكامل الذى تأكد منها حين دخل على المتآمرين فوجدهم مجتمعين وهم يقسمون على مصحف معهم لأخيه الفائز . ولم يستطع الكامل ان يفعل شيئاً تجاه هؤلاء المتآمرين لحرج مركزه ، فهم من ناحية من كبار امرائه ولهم اتباعهم ، ومن السهل ان جاهرهم بالعداء أن يسببوا له الكثير من المتاعب . ومن جهة أخرى أمامه الصليبيون متحفزون للهجوم على معسكره بالعادليه . لذلك أصبح الكامل في موقف صعب . فقد

دفع خوف الكامل على حياته من هؤلاء المتآمرين ضده ، الى رحيله ليلاً من معسكر العادلية وسار الى قرية أشموم طناح (أشمون) ، وعندما اصبح الجند ولم يجدوا الكامل في خيمته بينهم ، ساد الذعر بينهم وتركوا أسلحتهم وامتعتهم بمعسكر العادلية وولوا هاربين في أثر الكامل ، وهكذا خليت العادلية من المسلمين وكان ذلك في ٥ فبراير ١٢١٩ .

ولم يخفى اخلاء معسكر المسلمين في العادلية على الصليبيين وقد ظنوا في بادىء الأمر انها خدعة لاستدراجهم الى كمين ، ولكنهم تأكدوا من حقيقة فرار المسلمين وتركهم المعسكر فاستولوا عليه ، وكان استيلائهم على معسكر العادلية خطوة هامة في صالحهم لانه اتيح لهم النزول الى الضفة الشرقية للنيل وبذلك تمكنوا من فرض الحصار على مدينة دمياط . وبذلك وقعت دمياط تحت وطأة الحصار البحرى نتيجة لحصار سفن الصليبيين لها من ناحيتها الغربية المواجهة للنيل ، في حين حاصرتها قواتهم البرية من جهاتها الاخرى .

وقد ازداد الأمر سوءاً بالنسبة للملك العادل الايوبي ، نتيجة للكسب الذى احرزه الصليبيين من ناحية ولعدم استطاعته القضاء على ابن المشطوب وجماعته من ناحية اخرى لدرجة أنه أى الكامل فكر في مغادرة مصر وتركها للصليبيين والذهاب الى ابنه الملك المسعود الذى يحكم بلاد اليمن . ولكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين ذلك ان الملك المعظم عيسى وصل الى أخيه الكامل عند اشموم طناح . وبعد أن علم بقصة المتآمرين تعهد لشقيقه الكامل لتخليصه من زعيمهم ابن المشطوب ، وعن طريق الحيلة ، نجح فعلاً في القبض عليه وارساله الى الشام ، ثم ارسلوا اخيهم الفائز الى الموصل ، وتم لهم بذلك القضاء على هذه المؤامرة التى هددت المعسكر الاسلامى . وبدأ الكامل يستعد من جديد لمواجهة الصليبيين فانتقل من اشموم طناح الى فارسكور وفي نفس الوقت أخذ يطلب النجدة من العالم الاسلامى ، وقد وصلته بالفعل بعض المساعدات العسكرية ، وقد استغل الكامل المساعدات التى وصلته وشن عدة غارات على المعسكر الصليبى المحاصر لدمياط ، لكنه لم يستطع زحزحتها عن مكانها امام دمياط . وهنا حدث تحول في سياسة الكامل تجاه الصليبيين ففتح باب

المفاوضات بينه وبينهم لعلها تنجح في تحقيق ماعجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ويتم جلاءهم عن الاراضى المصرية .

ولعل الاسباب التى دفعت الكامل لتحوله هذا ، تتعلق بادراك الكامل لحقيقة قوة الصليبيين وكثرة اعدادهم ، خاصة ان الاخبار قد جاءت تؤكد ان الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هو هنشتاوفن يستعد للحاق بالصليبيين امام دمياط ، كذلك ادرك الكامل حقيقة قوته العسكرية وانها بأى حال لن تستطيع القضاء على الصليبيين خاصة وان حركة ابن المشطوب قد احدثت بلبلة بين صفوف قواته وكذلك اضطراب وفوضى . الى جانب المجمات التى كان يشنها الاعراب على المعسكر الاسلامى في فارسكور حتى ان المؤرخ ابن الأثير يقول بان هؤلاء الاعراب كانوا أشد على المسلمين من الصليبيين أنفسهم ، بعد أن نهبوا وأفسدوا وبالغوا في الافساد في البلاد المجاورة لدمياط . هذا كله بالاضافة الى انتشار الاخبار عن عزم التتار على فتح المشرق الاسلامى وكان مما لايخفى على أحد أعمال العنف الهمجية التى تتصف بها غارات التتار .

لذلك كله فقد فضل الملك الكامل ان يتفاوض مع الصليبيين عله ينجح في ابعادهم عن بلاده سلمياً . وقد عرض الكامل على الصليبيين عرضاً سخياً للغاية مضمونه ان يتنازل لهم عن جميع الاراضى التى كانت تابعة لهم قبل معركة حطين في ١١٨٧ وماتلاها من فتوحات قام بها صلاح الدين فيما عدا قلعتى الشوبك والكرك ، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط .

وقد تشاور الصليبيون بخصوص هذا العرض وقبله حنا دى برين وأيده الفريق العسكرى في الحملة ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض ذلك العرض واتخذ جانبه في هذا الرفض شيعته من رجال الدين وفرسان الداوية والاسبتارية ، وقد طالب الفريق الاخير بكافة ممتلكات مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيها الكرك والشوبك . فرفض الكامل تحقيق ذلك .

وقد قام الصليبيون بهجوم على معسكر الكامل في فارسكور ، ووقعوا في كمين أعده الملك الكامل ، وكانت النتيجة أن ألحق المسلمون بالصليبيين هزيمة

كبيرة وقتلوا منهم مايقرب من أربعة الآف جندى . وعقب هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون عاود الملك الكامل عرض الصلح مرة أخرى على الصليبيين ولكنهم رفضوه ، فعاود العرض للمرة الثالثة وابدى استعداده لتعويضهم مالياً عن قلعتى الكرك والشوبك ، واعادة صليب الصلبوت وكذلك اطلاق سراح جميع الاسرى الصليبيين ، وقد تكرر ماسبق فوافق الملك حنا دى برين على هذا العرض ، في حين رفض المندوب البابوى بلاجيوس وشيعته ، واعلنوا ان انسحابهم من أمام دمياط سيصبح عاراً على كل صليبى وانه لابد من استعادة مملكة بيت المقدس بحد السيف .

وقد زادت نتيجة لذلك حدة الخلاف بين الملك حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، خاصة بعد ان تمادى بلاجيوس في تجاهل سلطة حنا دى برين وادعى لنفسه الحق كل الحق في تصريف شئون الحملة الصليبية وحده ، وكان لذلك آثاره السيئة على الجانب الصليبى كما سنرى من خلال عرضنا المقبل للاحداث .

اشتد حصار الصليبيين لمدينة دمياط ، وكان من الطبيعى ان تحدث مجاعة داخل البلد بعد أن تعسر وصول الامدادات اليها ، ولم يترك الكامل وسيلة أو حيلة للاتصال بأهالى دمياط وتهريب المؤن اليهم الا واستعملها ، ولكن وباء الطاعون انتشر بين أهاليها وافنى الكثيرين منهم ، لدرجة ان عدد سكانها عند بداية الحصار كان ستون ألف نسمة ، ولم يتبق منهم عند سقوطها في يد الصليبيين سوى ثلاثة آلاف نسمة .

وقد استغل الصليبيون هذه الظروف داخل المدينة وقاموا بهجوم مكثف عليها استعملوا فيه السلالم المتحركة والكتل الخشبية ليعبروا الخندق المقام حولها ، ووصلوا الى السور واعتلوه فاصيب الأهالى بالذعر ولم يستطيعوا المقاومة لقلة عددهم ومعاناتهم من طول الحصار . ويقال ان سقوط المدينة كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يكن باستطاعته أن يفعل شيء سوى أن يبكى بشدة هو وشقيقه المعظم ، وكان استيلاء الصليبيين على دمياط الباسلة يوم الثلاثاء الموافق ٥ نوفمبر ١٢١٩ أى بعد حصار استمر تسعة أشهر .

وقد كان حال الاهالى بالداخل يرثى له فمعظمهم قد لقى حتفه بعد أن تفشى مرض الطاعون بينهم ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط بل كانت في كل مكان بالمنازل وفوق الأسرة ، وقد وجد الصليبيون الاطفال الجياع داخل المدينة وهم يبكون ويطلبون الطعام من ابائهم وأمهاتهم الاموات . ورغم هذا فلم ترق لهم قلوب هؤلاء الطغاة وانما أعملوا القتل والأسر في كل من صادفوه من البقية الباقية من أهالى هذه المدينة الباسلة ، كما حولوا جامعها الى كنيسة .

تقدم القوات الصليبية نحو القاهرة وهزيمة الحملة :

اشتد النزاع بين الصليبيين حول ملكية مدينة دمياط ، فان ملك بيت المقدس حنا دى برين كان يرى ان دمياط قد اصبحت جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية ، في حين كان رأى بلاجيوس ان المدينة يجب أن تخضع للكنيسة ، وباعتباره ممثلاً للكنيسة ونائباً عن البابا في الحملة ، لذلك يجب ان تخضع المدينة لسلطته . أما الخلاف الثانى فكان حول تقسيم الغنائم على القوات الصليبية لأن الجنود الايطاليين لم يقنعوا بما منحوه لهم من غنائم وطالبوا بالمزيد وشهروا سيوفهم في وجه باقى العناصر المشتركة في الحملة وعلى الاخص الجنود الفرنسيين . أما المشكلة الثالثة التى واجهت الصليبيين فكانت خاصة بتقدمهم نحو القاهرة ، لأن المندوب البابوى بلاجيوس صمم على ضرورة الزحف مباشرة ومطاردة الايوبيين في حين رأى حنا دى برين انه من الواجب زيادة تحصينات مدينة دمياط ومنح الصليبيين قسطاً من الراحة بعد كل ماعانوه في الشهور الماضية وقبل سقوط دمياط في أيديهم . وهكذا اشتد الخلاف بين الصليبيين . أما بالنسبة للمشكلة الاولى فتم حلها حين تم عرضها على البابا هونوريوس الثالث وجاء رده بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس وبالتالى تسليمها لحنا دى برين . وأما المشكلة الثانية فتم حلها أيضاً عن طريق اعادة تقسيم الغنائم واعطاء الايطاليون المزيد منها وبذلك عاد الوئام بين عناصر الحملة . أما المشكلة الثالثة فقد كسبها حنا دى برين أيضاً حين تغلب على رأى بلاجيوس . وبطبيعة الحال لم يغفر بلاجيوس لحنا دى برين كل ذلك وانما ظل

يتحين الفرص للحط من ارائه وادعاء سلطات لم يخولها له البابا وحاول باستمرار الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية في الحملة . وقد استاء الملك حنا دى برين من ذلك وانتحل بعض الاعذار وأهمها هجوم المسلمين على الممتلكات الصليبية في الشام وضرورة تواجده هناك ، وغادر دمياط عائداً الى عكا في أواخر مارس ١٢٢٠ .

وهكذا خلا الجو لبلاجيوس ، فأخذ يتصرف في شئون الحملة بمفرده ، وأصدر أوامر مشددة للحد من النشاط البحرى للصليبيين بين دمياط وعكا ، وقد اعطى ذلك الفرصة لسيطرة المسلمين على مياه البحر بين دمياط وعكا وقطع الطريق على السفن الصليبية .

وقد وصلت بعض القوات الصليبية على رأسها دوق بافاريا فتشجع بلاجيوس وقرر في أواخر يونيو ١٢٢١ الزحف على القاهرة ، وأرسل الى الملك حنا دى برين في عكا يطلب منه الحضور للمشاركة في هذا العمل العسكرى . وقد رفض الملك في بادىء الأمر العودة الى دمياط ، ولكنه خشى تعرضه لغضب البابا والصليبيين عامة واتهامه بعرقلة جهودهم العسكرية ضد المسلمين ، ولذلك عاد من جديد الى دمياط في الوقت الذى كان الصليبيون قد بدأوا يتقدمون فعلاً بحذاء النيل نحو القاهرة .

أما عن الملك الكامل ، فكان قد نقل معسكره من فارسكور الى المنطقة المقابلة لطلخا وأقام معسكره هناك وأطلق عليها اسم (المنصورة) . وقد جاءت اليه الامدادات العسكرية من كل مكان كما وصل اليه أخويه المعظم والأشرف ، وهكذا اجتمع الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والاشرف في المعسكر في المنصورة لوضع الخطط لمواجهة الصليبيين . وقد عرض الكامل على الصليبيين للمرة الأخيرة الصلح على الشروط التى سبق أن عرضها عليهم ، ولكنهم أبوا وتكبروا وأصروا على تسليم الكرك والشوبك مع دفع غرامة قدرها خمسمائة ألف دينار ليعمروا بها ماخربه المسلمون من بلادهم . وقد تقدم الفرنج على الشاطىء الشرقى للنيل وبجوارهم سفنهم تسير في النيل ، وكان وقت تقدمهم في أوائل اغسطس ١٢٢١ ، والمعروف ان ذلك هو الوقت الذي

يكون فيه فيضان النيل في أعلى مستوى له وذلك يدل على جهل تام من جانب الصليبيين بطبيعة أرض مصر وأمر نيلها .

وقد ارسل الكامل بعض السفن عن طريق فرع رشيد ودخلت الى فرع دمياط عن طريق البحر واصبحت خلف سفن الصليبيين وبذلك حالت بينهم وبين الاتصال بقاعدتهم في دمياط عن طريق النيل . كما أنزل الكامل عند شارمساح (شمالى شربين) ألفى فارس مع الآف من العربان ليحولوا بين الصليبيين وبين اتصالهم بدمياط عن طريق البر .

وعندما وصل الصليبيون الى المنطقة المعروفة باسم رأس الجزيرة وهى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر اشموم) من فرع دمياط وهى عبارة عن مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات فرع دمياط من جهة والبحر الصغير من جهة وبحيرة المنزلة من جهة ثالثة . عند وصولهم الى هذا المكان أمر الكامل بقطع السدود وفتح الترع عليهم من جميع الجهات ، فلم يدرى الصليبيون إلا والمياه تحيط بهم من كل جانب وقد غرقوا في الطين حتى بلغ ركبهم . ولم يعد امامهم الا شريط ضيق جداً يستطيعون العودة عن طريقه الى دمياط . ولكن الكامل كان قد أنزل به الاعراب والفرسان كما سبقت الاشارة ، ليحول بينهم وبين العودة الى دمياط .

وهكذا اصبح الموقف عسير جداً على الصليبيين ، بعد أن أصبحوا محصورين في هذه المنطقة فلا هم يستطيعون التقدم خطوة واحدة نحو القاهرة ، ولاهم يستطيعون العودة الى دمياط ، ولاهم بامكانهم القتال في هذا المكان الموحل ، ولاشك أن ذلك كله يرجع الى الخطة التى وضعها الايوبيون وعلى رأسهم الملك الكامل واستغلالهم لفيضان النيل ودرايتهم التامة بطبيعة أرض مصر واختيارهم المكان المناسب لحصر الصليبيين وفتح السدود والقنوات عليهم واغراقهم في المياه على هذا النحو . وبذلك أثبتوا تفوقهم الفكرى والعسكرى على الصليبيين الغربيين .

وقد ادرك الصليبيون أنهم هالكون لا محالة ، وفي محاولة لانقاذ أنفسهم ارسلوا على وجه السرعة الى الملك الكامل الايوبى يعرضون عليه الصلح

واستعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج كلية من مصر ، وبدون أية مقابل سوى انقاذهم من هذا الموقف الذى اصبحوا فيه .

وقد اراد المعظم والاشرف ان يستغلا هذه الورطة التي وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم ، ولكن الكامل رفض ذلك وقبل العرض الذي عرضه عليه الصليبيون . واشترط الكامل علي الصليبيين ان يرسلوا اليه رهائن من ملوكهم وأكبر الشخصيات لديهم ، فوافقوا وارسلوا اليه الملك حنا دى برين شخصياً والمندوب البابوى بلاجيوس . ومجموعة من كبار امرائهم بلغوا العشرين . وقد أكرمهم الكامل كعادة المسلمين دائماً وبقوا لديه حتى تم تسليم الصليبيين لدمياط في ٧ سبتمبر ١٢٢١ . وقد دخلها الملك الكامل في اليوم التالى مباشرة ، وابرم اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات ١٢٢١ - ١٢٢٩ نصت علي اطلاق كل فريق ماعنده من الاسرى . وقد ابحر الصليبيون الغربيون الى أوروبا أما الملك حنا دى برين فقد عاد هو ورجاله الى الشام يجرون أذيال الخيبة والفشل ، وقد شبههم أحد المؤرخين المسلمين بالنعامة التى خرجت تبغى أن تطيل ذيلها ، فعادت بلا ذيل على الاطلاق .

وهكذا تم للايوبيين القضاء على الحملة الصليبية الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة ، في حين أضاع الصليبيون جهودهم كلها والانتصارات المبدئية التى احرزوها نتيجة لخلافاتهم المستمرة وعلى وجه الخصوص الخلاف بين بلاجيوس مندوب البابا والملك جنا دى برين . ومن أسباب الهزيمة كذلك جهل الصليبيين التام بطبيعة البلاد المصرية وميعاد فيضان النيل وهذا ماسيحاول تداركه لويس التاسع في حملته الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية السابعة ، ولكن ورغم ذلك ستفشل هى الاخرى لاسباب سيتم شرحها فيما بعد وعند تناولنا لهذه الحملة .

الفصل الخامس

بيت المقدس

بين السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثاني

لقد كان الارتباط الذى تم بين ابناء الملك العادل عقب وفاته أحد الاسباب الهامة في القضاء على الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، على أن هذا الارتباط لم يلبث ان انفصمت عراه في نهاية سنة ١٢٢٣ وبداية سنة ١٢٢٤ ، واشتعل الصراع بين الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والاشرف موسى .

ذلك أن المعظم عيسى قد طمع في أملاك ابن عمه ويدعى الناصر صلاح الدين قليج ارسلان الذى كانت له حماه واعمالها ، فهاجم المعظم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية .

على أن الملك الكامل وأخيه الأشرف موسى لم يوافقا اخيهما على تصرفاته تلك ، وكان ذلك مما أثار الخلاف بين الاشقاء الثلاثة الكامل والاشرف من ناحية والمعظم عيسى من ناحية أخرى ، خاصة بعد ان أرسل شقيقه الكامل يأمره برد مااستولى عليه من ابن عمهما ، وقد نفذ المعظم رغبة أخيه الكامل وانصرف عن حماه وهو حانق ومتذمر .

على أن الظروف لم تلبث ان اضطرت الاشرف الى أن يلجأ لأخيه المعظم عيسى طالباً منه المساعدة العسكرية من أجل مواجهة خطر الخوارزمية الذين أخذوا يهددون أراضيه في الجزيرة وخلاط . ذلك أن ملك التتار جنكيز خان كان قد دمر دولة الاتراك الخوارزمية في ١٢٢٠ - ١٢٢٢ ، وقد فر ملك الخوارزمية جلال الدين منكبرتى الى الهند ، وحين علم بعودة جنكيزخان الى بلاده في جوف آسيا ، عاد جلال الدين منكبرتى الى فارس والتف حوله الاتراك الخوارزمية من جديد ، ونجح في أحياء دولته مرة أخرى واتخذ من أصفهان عاصمة له . وبدلاً من أن يعمل جلال الدين منكبرتى على توحيد جهود العالم الاسلامى والوقوف في وجه التتار الوثنيين ، أخذ في مهاجمة والاعتداء على أراضى الخليفة العباسى وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ . ثم أخذ جلال الدين يهاجم أقليم جورجيا القريب من أملاك الاشرف موسى في أعالى الجزيرة ، مما دفع الأشرف الى ان يلتمس المعونة العسكرية من جانب أخيه المعظم عيسى .

وقد انتهز المعظم عيسى هذه الفرصة وقبض على أخيه الأشرف موسى ، واجبره على أن يقسم له أن يتعاونا معاً في الاستيلاء على حماه وحمص ، ثم

مهاجمة شقيقهما الكامل في مصر .

على أنه ماكاد الأشرف موسى يفلت من يد شقيقه المعظم عيسى حتى رجع عن جميع ماتعهد له به ، متذرعاً بانه أكره على القسم ، وقد اخبر الملك الكامل بكل ماحدث وأكد له أطماع أخيه المعظم عيسى في ملكه بمصر .

على أن خطورة هذا الصراع كانت تكمن في التجاء كل من الطرفين المتنازعين الى الاستعانة بالقوى الخارجية ، فلجأ المعظم عيسى الى جلال الدين منكبرتى واتفق معه ضد شقيقيه الاشرف والكامل .

أما الملك الكامل فقد راسل الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، وأرسل له مبعوثاً من طرفه هو الامير فخر الدين يوسف ، وتعهد الكامل للامبراطور فردريك بأنه اذا بذل له المساعدة العسكرية ضد أخيه المعظم عيسى ، فان الكامل سيعطيه بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين الايوبى بالساحل الشامى .

وقد استجاب السلطان جلال الدين منكبرتى لنداء المعظم عيسى وارسل له خلعة ، لبسها وسار بها في شوارع دمشق وقطع الخطبة لاخيه الكامل ، ولم يسكت الكامل عن هذا فأخذ يستعد للخروج الى الشام لتأديب شقيقه المعظم عيسى .

أما عن الامبراطور فردريك هوهنشتاوفن ، فقد رحب هو الآخر برسول الكامل وتشجع فردريك على الخروج الى الشام ، ورد على سفارة الكامل اليه ، بسفارة مماثلة وارسل للكامل تحفاً وهدايا غريبة ، وقد استقبل الكامل رسول الامبراطور بالحفاوة البالغة وأكرمه كرماً زائداً ، وحمله هدايا نفيسة الى الامبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم على حد تعبير المؤرخ المقريزى .

وهكذا هيأ هذا الخلاف والصراع الذى اشتعل بين الاخوة ابناء العادل الفرصة للامبراطور فردريك الثانى لتحقيق رغبة البابوية والخروج الى المشرق الاسلامى في حملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية السادسة .

الحملة الصليبية السادسة :

لقد كانت هذه الحملة من أغرب الاحداث في تاريخ الحروب الصليبية ذلك انْ الامبراطور الالماني فردريك الثاني هوهنشتاوفن الذى خرج على رأس تلك الحملة قد تعرض لمواقف صعبة خلقتها له البابوية ، في محاولات دائمة ومستمرة من جانبها لحثه على القيام بهذه الحملة الصليبية ضد المسلمين . وقد استطاع الامبراطور فردريك الثانى أن يسترد مدينة بيت المقدس دون أن يريق دماء جندياً واحداً من جنوده ، وكان استعادة تلك المدينة هى حلم البابوية منذ أن استردها صلاح الدين عقب معركة حطين في ١١٨٧ ، وكان استرداد هذه المدينة من يد المسلمين هو هدف الحملة الصليبية الثالثة التى خرج على رأسها أكبر ملوك في الغرب الاوروبى ، ورغم ما سال من دماء المسيحيين والمسلمين خلال تلك الحملة ورغم مفاوضات ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا مع صلاح الدين من أجل الحصول على بيت المقدس ، الا أن هذه الجهود كلها العسكرية والسلمية فشلت في استعادة هذه المدينة من يد المسلمين . ورغم أن فردريك الثانى قد نجح في استعادتها الا أن جهوده هذه لم تقابل بالاستحسان أو الثناء لا من جانب البابا ولا من جانب المسيحيين عامة . ولنتناول الموضوع مستعرضين احداث الحملة الصليبية السادسة من البداية .

لقد كانت هذه الحملة الصليبية السادسة ، فريدة من نوعها ؛ فهى من دون الحملات الصليبية التى لم تباركها البابوية ، بل صبت عليها لعنتها ، وهى الوحيدة من بين الحملات الصليبية التى جرى توجيهها دون أن تقوم بأى عمل عدائى ضد المسلمين . والواقع أن ذلك كله يرجع الى شخصية فردريك الثانى هوهنشتاوفن الذى كان شيئاً فريداً من نوعه ، بل لقد اطلق عليه معاصروه اسم (اعجوبة الدنيا) .

فقد ولد فردريك من أب ألمانى هو هنرى السادس ملك ألمانيا وأم نصف ايطالية ونشأ وتربى في صقلية على مقربة من المؤثرات الاسلامية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات ، وأجاد ست لغات من بينها اللغة العربية ، ونظم الشعر ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والبحث والتعليم ، وهو الى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق الى أقصى درجات

اللباقة ، مع الجرأة التى لا تخشى شيئاً ، والنزعة الفكرية الجانحة الى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ . وألف فردريك في البيزرة (علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص) كتاباً يعتبر أصلاً من أصول العلوم التجريبية في غرب أوروبا . واصطحب في أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان . ولم تكن التقاليد المسيحية التى التزمها الناس في ذلك العصر مما يأبه له فردريك الثانى . وفى الوقت الذى كان للبابا في الغرب الاوروبى المكانة الرفيعة السامية باعتباره خليفة القديس بطرس ، نجد فردريك ينعته بالدجال ، فيروى أن الامبراطور فردريك قد سأل أحد المسلمين عن الخليفة وماهية الخلافة ، فأجابه بان الخليفة ينحدر من نسل الرسول محمد ﷺ وانه ورث عنه حقوقه في حكم المسلمين . وعندئذ رد عليه فردريك قائلاً ان ذلك هو المنطق السليم ، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه صلة قربى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق المطلق في حكم المسيحيين .

وقد عرف عن فردريك الثانى حبه للمسلمين الذين نشأ بينهم في صقلية ، وقد دفع ذلك بعض الكتاب الى اتهام فردريك بمحاباة الاسلام على حساب المسيحية ، في حين ذهب البعض الآخر مثل فولتير ومونتسكيو ، الى القول بان كراهية فردريك الثانى للبابوية والكنيسة الغربية هى التى دفعته الى حب الاسلام والمسلمين .

وعلى الرغم من أن فردريك الثانى قد بدأ حياته السياسية بتحالفه مع البابوية وهو التحالف الذى أفاده الى حد كبير ضد خصومه ومنافسيه في ألمانيا ، الا أن الامور لم تلبث أن تعقدت بين الطرفين ، بعد أن تأكدت البابوية ان فردريك غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمال ايطاليا ، أى في أقليم لمبارديا ، وانه اتخذ ايطاليا وصقلية مسرحاً اساسياً لجهوده والتمكين لنفسه حقيقة ان فردريك قد حرص آنذاك على احترام مركز البابوية في ايطاليا ، ولكن سيطرته على جنوب ايطاليا وشمالها كان نذيراً بوقوع الاملاك البابوية في وسط ايطاليا بين فكى الكماشة ، مما جعل البابا يرتاب في سياسة

فردريك وينظر اليها بعين ملؤها الشك والخوف .

وفي سنة ١٢١٥ أقسم فردريك للبابا اينوسنت الثالث ان يقوم بحملة صليبية ضد المسلمين ، ولما كان فردريك الثانى يميل للمسلمين ويعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير ، لذلك لم يجد الدافع الذى يدفعه للخروج من بلاده على رأس حملة صليبية ضدهم ، ومن ثمة فقد أخذ يعتذر للبابا مرة بعد مرة ، والبابا يقبل عذره ، وبعدما أصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل ، حاول البابا هونوريوس الثالث ان يوجد الدافع لدى فردريك للخروج في حملة صليبية ضد المسلمين ، وان يزيد في توطيد صلة فردريك بالاراضي المقدسة في فلسطين ، فرتب البابا زواج فردريك من يولاند ابنة حنا دى برين ، ووريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، واشترط البابا ان يتم الزواج في الشام ، وقد نفذ فردريك رغبة البابا وتم زواجه من يولاند ، ولكن بدلاً من أن يذهب فردريك الى الشام ويتم الزواج هناك ، استدعى عروسه الى صقلية . وعقب هذا الزواج اتخذ فردريك لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق زوجته .

وعلى الرغم من أن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١) كان طاعناً في السن ، الا انه امتاز بارادة حديدية لا تفل فلم يقبل الاعذار التى دأب فردريك الثانى على ابتكارها من أجل تأجيل حملته الصليبية ، واصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فوراً ، والا تعرض لعقوبة الحرمان . ولم يجد الامبراطور فردريك الثانى مفراً من الخروج في خريف سنة ١٢٢٧ قاصداً بلاد الشام . خصوصاً بعد ان اتصل به الملك الكامل الايوبى وارسل له سفارة على النحو الذى سبق توضيحه ، ووعده بتسليمه مدينة بيت المقدس مقابل بذل المساعدة العسكرية له ضد شقيقه المعظم عيسى . وبذلك أوجد للامبراطور الدافع الذى يخرج من أجل تحقيقه وفي نفس الوقت لا يتعارض مع ما يشعر به من محبة وود نحو المسلمين . فهو لايخرج كعدو لهم ، وانما كصديق وحليف للسلطان الملك الكامل الايوبى .

على ان الامبراطور ماكاد يبحر من برنديزى ، حتى خر مريضاً ، نتيجة الحمى التى تفشت فترة من الزمن في صفوف جيشه أثناء انتظارهم عبور البحر

الى بلاد الشام . وكان من نتيجة ذلك ان عاد فردريك الى اوترانتو حتى يستعيد صحته . لكن البابا جريجورى التاسع اعتقد.ان فردريك عاد من جديد الى التسويف والتأجيل ، واعتبر مرضه تمارضاً واصدر ضده قرار الحرمان بالفعل .

ورغم ذلك.فان فردريك قد خرج على رأس حملته الصليبية في صيف عام ١٢٢٨ ، فعرض بذلك على اوروبا التى استبدت بها الدهشة ، صورة محارب قطعته الكنيسة ، خلف وراءه املاكه التى تعرضت لغزو جند البابا الذين أعلن البابا جريجورى التاسع اعتبارهم محاربين صليبيين يقاتلون ملكاً غير مسيحى . ومن أجل.ذلك جبى ضريبة العشر من سائر كنائس أوروبا . والواقع ان مااشتهرت به حملة فردريك من التناقض كان موضع الدهشة ، اذ أننا ازاء محارب صليبى ، تقرر اعلان الحرب الصليبية على املاكه ومهما يكن فحين وصول الامبراطور فردريك الثانى الى عكا في سبتمبر ١٢٢٨ ، كان الموقف بين أفراد البيت الايوبى قد.تغير . ذلك أن المعظم عيسى كان قد توفى في نوفمبر ١٢٢٧ ، وخلفه ابنه الناصر داود ، وهو شاب صغير السن في العشرين من عمره ليست له خبرة ولا قوة ولم يلبث ان اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة ، وبذلك زال الخطر عن الملك الكامل ولم يعد في حاجة الى مساعدة الأمبراطور فردريك الثانى ، بعد ان اقتسم الكامل والاشرف موسى املاك شقيقهما المعظم عيسى ، وقد احتل الكامل بيت المقدس ونابلس في صيف عام ١٢٥٨ .

وهكذا اصبح الموقف حرجاً ، لأن الملك الكامل هو الذى استدعى الامبراطور فردريك الى الشام لمساعدته ، حقيقة ان هناك عوامل خاصة بالغرب الاوروبى والبابوية التى دأبت على حث فردريك على الخروج في حملة صليبية ضد المسلمين ، ولكن لا نستطيع اغفال استدعاء الكامل للامبراطور ووعده بتسليم بيت المقدس له وهو ماشجع الامبراطور على الخروج الى الشرق على رأس خمسمائة فارس فقط معتمداً على وعد الكامل بتسليمه بيت المقدس سلمياً . لذلك فقد شعر الملك الكامل بالحرج ويصور المقريزى الموقف أصدق

تصوير حين يقول : « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه » .

أما عن موقف الامبراطور فردريك الثاني فلم يقل حرصاً عن موقف الكامل ، لأنه خرج من بلاده وهو محروم من رحمة الكنيسة ومغضوباً عليه من البابوية ، معتمداً على وعد الكامل له ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لاستعد استعداداً طيباً واحضر معه جيشاً كبيراً يساعده على حماية مصالح الصليبيين بالاراضى الشامية ، خاصة وانه لا يمكنه الاعتماد على تعاون الصليبيين بالشام معه لأن أى مسيحى مخلص يرفض التعاون مع شخص محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس .

ولو عاد فردريك الى الغرب الاوروبى دون أن يحصل على بيت المقدس ، ازدادت الامور سوءاً بالنسبة له ، وسيكون ذلك سلاحاً جديداً في يد البابوية تحاربه وتشنع عليه . فالموضوع بالنسبة لفردريك كان موضوع مستقبل عرشه في الغرب ومصير المعركة بينه وبين البابا ، وليس موضوع استرداد بيت المقدس من يد المسلمين في حد ذاته . والدليل على ذلك ماقاله فردريك للملك الكامل من انه « ماله غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » وكان البابا يدرك كل ذلك جيداً ، لذلك فقد أخذ يراسل الملك الكامل ويحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك ، لأنه لو قدر له استرداد بيت المقدس فان ذلك سيكون انتصاراً له على البابوية وسيعتبره المعاصرون حكم الله العادل لصالح الامبراطور فردريك . ومن ذلك يتضح تناقض موقف البابوية التى ملأت العالم الغربى صراخاً وعويلاً على ضياع بيت المقدس ودعت للحملة تلو الحملة لاسترجاعها من يد المسلمين ، وهاهى ذى الآن تحث الملك الكامل وتحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك وهذا يوضح ان البابوية لم يكن يهمها استرجاع المسيحيين لبيت المقدس بقدر مايهمها مصالحها الخاصة في حربها ضد الامبراطور فردريك ورغبتها في عدم احرازه لأى نصر يعزز موقفه أمام العالم الغربى المسيحى .

على أية حال ، فبمجرد وصول الامبراطور فردريك الى عكا ارسل سفارة

الى الملك الكامل الايوبى تحمل له الهدايا النفيسة من المنسوجات الحريرية والاوانى الذهبية والفضية وتلتمس منه تحقيق وعده وتسليم الامبراطور بيت المقدس .

لكن الملك الكامل اعتذر عن عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور مما دفع الامبراطور لفتح باب المفاوضات بعد أن علم ان البابا اصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية وانه أباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، كما أخذ البابا في نشر الاشاعات ضد الامبراطور وكان آخرها أن الامبراطور قد مات وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الامبراطورية .

وقد أثرت هذه الأخبار تأثيراً سيئاً على نفسية الامبراطور ، وقد دفعه كل ذلك الى ارسال رسالة للملك الكامل أوضح فيها موقفه توضيحاً تاماً فقال : « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج وأنت تعلم انى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فان رجعت خايباً انكسرت حرمتى بينهم .. وهذا القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد اخربوها فليس لها دخل طائل ، فأن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » وقد تأثر الملك الكامل تأثراً بالغاً بنغمة الاستعطاف هذه التى سار عليها الامبراطور ، بالاضافة الى ماسبق توضيحه من انه خشى ان رفض تسليم القدس واتفق الامبراطور مع الصليبيين بالشام ضد الكامل فان موقفه سيكون سيئاً للغاية . أضف لذلك ان الملك الكامل بطبيعته كان متسامحاً اكثر من اللازم ولعل ذلك يبدو واضحاً في عرضه على الصليبيين – أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر أكثر من مرة تسليمهم بيت المقدس – وكذلك ارساله السفارة الى الامبراطور فردريك في الغرب الاوروبى ووعده بتسليمه بيت القدس ، وهذا يدل على تسامح بل واستهتار من جانب الكامل في حق هذه المدينة المقدسة التى عانى عمه صلاح الدين أشد المعاناة وأقصاها حتى تم له استردادها من يد الصليبيين . على أية حال انتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد اتفاقية يافا في ١٨ فبراير ١٢٢٩ ، التى نصت على أن يأخذ الصليبيون بيت

المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . واشترط أن تظل بيت المقدس على ماهى عليه من الخراب ولايجدد سورها وان يكون للمسلمين سائر قرى القدس ، وكذلك يكون للمسلمين المسجد الاقصى يقيمون فيه شعائر الاسلام من الآذان والصلاة ولايدخله الصليبيون الا للزيارة فقط . كذلك نص على ان تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنين . وقد كان لهذه الاتفاقية صدى عميق عند كلا الطرفين ، المسلمين والصليبيين.أما بالنسبة للمسلمين فقد آلمهم كثيراً ان يفرط الملك الكامل بهذه السهولة في تلك المدينة المقدسة ويصور المؤرخ المقريزى صدى ذلك عند المسلمين بقوله : « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس ، الى مخيم الكامل أذنوا على بابه في غير وقت الآذان .. فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء ، واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار » .

والغريب أن الصليبيين أيضاً لم يعجبهم استرداد الامبراطور فردريك الثانى لمدينة بيت المقدس وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور ، فقال البعض منهم ان كرامة المسيحية كانت تحتم ان تؤخذ بيت المقدس بحد السيف وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل فردريك الثانى . أما البعض الآخر فأخذ يوضح ان لا أهمية لبيت المقدس بدون حصنى الكرك والشوبك وهذا ماجعل الصليبيين يرفضون عرض الملك الكامل عليهم بتسليمهم القدس أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر . أما البعض الثالث فقال بانه لا قيمة لأى كسب أو انتصار يحققه امبراطور محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس . وقد أوقع بطريرك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان على مدينة بيت المقدس نفسها وعلى كل من فيها من المسيحيين اذا استقبلوا الامبراطور فردريك الثانى في مدينتهم .

وقد سارع الامبراطور فردريك بالتوجه الى بيت المقدس عقب ابرام اتفاقية يافا ، ودخلها يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتسلمها من يد القاضى شمس الدين قاضى نابلس الذى خصصه الكامل لخدمة الامبراطور . وقد دخل

فردريك كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده ، وقد فسر المؤرخون تصرفه هذا عدة تفسيرات ، فمن قائل انه فعل ذلك بعد أن رفض رجال الدين تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، وقال البعض بانه فعل ذلك عن قصد حتى يثبت للبابا ولرجال الدين انه تسلم التاج في هذا المكان البالغ الاهمية وهو كنيسة القيامة ، من الله مباشرة دون حاجة لرجال الدين أو للبابا ، وهو الذى ملأ الدنيا صياحاً بأن التاج الامبراطورى ماهو الا منحة من البابا للامبراطور ، أو اقطاع يمنحه للامبراطور ، وعلى الامبراطور أن يكون فصلاً تابعاً للبابا يؤدى له ما للفصل من واجبات نحو سيده .

وقد قام الامبراطور وهو في بيت المقدس بزيارة المسجد الأقصى وكان الملك الكامل قد منع اقامة الآذان به طيلة وجود الامبراطور بالمدينة اعظاماً واحتراماً له ، ولكن فردريك غضب لذلك التصرف من جانب الكامل واوضح بأنه كان يود أن يسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل . وقد دعى ذلك بعض المؤرخين الى الاعتقاد بان فردريك كان مسلماً ويتلاعب بالنصرانية على حد تعبير المؤرخ العينى .

وأثناء وجود الامبراطور داخل بيت المقدس وصلها بطرس اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة ، وقد استاء الامبراطور لذلك واعتبرها اهانة كبيرة لحقت بشخصه ، وغادر القدس الى يافا ، ثم الى عكا فوصلها يوم ٢٣ مارس ١٢٢٩ ، وقد غادرها في أول مايو ١٢٢٩ بحراً الى قبرص حيث قضى بها عدة أيام ثم تركها الى ايطاليا فوصلها يوم ١٠ يونيو ١٢٢٩ .

وهكذا انتهت هذه الحملة التى اتسمت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ويعقب المؤرخ أرنست باركر على هذه الحملة بقوله :

« لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة ، انما الذى حدث فعلاً ، هو نوع من المساومة الحقيرة ، مثلما يجرى عادة في أى سوق من أسواق الشرق ، بين ملك صقلية المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق ، وبين سلطان مصر . والواقع ان فردريك انما تصرف بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس . وهو ماكان لابد ان يقوم به . فمن اسلافه الصقليين ،

الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر ، تعلم فردريك ان يجعل من الحرب ، وان كانت صليبية ، مسألة معاهدة ، فعلى الرغم من أن الفرع الترمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفى ، فان سياسته بقيت من بعدهم ، عند من خلفهم من ملوك أسرة هوهنشتاوفن ، تلك السياسة التى اسهمت في تحول الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية هدف النورمان من قديم الزمن ، والتى امعنت في أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى ، المجرد من الدين » .

أما المؤرخ فيشر فانه يختلف في نظرته للحملة الصليبية السادسة عن نظرة باركر ، حين يقول :

« عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الايوبى معاهدة تبيح للحجاج المسيحيين زيارة الاماكن المقدسة مدة عشر سنوات ، وذلك دون ان يضيع وقتاً ، أو ينفق مالاً أو يهدر دما . تلك هى ثمار المهارة السياسية ، حين تحل الانسانية والادراك السليم محل الحقد الاعمى الذى ينجم عن التعصب الدّينى والكراهية بين اجناس البشر » .

ومهما كان حكم المؤرخين على الحملة الصليبية السادسة وما حققته من استعادة بيت المقدس دون اراقة دماء . فالذى لاشك فيه ان الملك الكامل الايوبى قد فرط تفريطاً كبيراً بالتنازل عن بيت المقدس هكذا وببساطة . وكان الواجب يقتضى منه أن يحارب الصليبيين ويدافع دفاع المستميت عن هذه المدينة المقدسة ، وكان من الخير له وللمسلمين ان تقع بيت المقدس في يد الصليبيين بعد حرب وقتال ، لا ان يسلمها لهم دون اراقة دماء . لذلك فقد استحق الملك الكامل غضب المسلمين وثورتهم عليه ، أو كما قال المؤرخون المسلمون : « قامت القيامة في جميع بلاد الاسلام ، واشتدت العظايم ، بحيث ان اقيمت المآتم » . وقد كان من نتيجة ذلك ان ادرك الكامل مدى الورطة التى وقع فيها وندم على تسليم بيت المقدس ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان » .

الفصـــل الســـادس

مصـــــــــر
والحمـلة الصـليبية السـابعة

رأينا كيف تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس الى الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن وصدى ذلك عند كل من المسلمين والصليبيين ، على أن هذه المدينة لم تلبث أن خرجت من يد الصليبيين والى الأبد هذه المرة .

وتتلخص ظروف ذلك في أنه بعد وفاة الكامل في أوائل مارس ١٢٣٨ ، خلفه ابنه العادل الثاني ، الذى صارت له السلطنة والسلطة العليا في الدولة الأيوبية،على أن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، استولى على دمشق سنة ١٢٣٩ ، مما أوقعه في نزاع مع شقيقه العادل ، وقد استعان كل من الشقيقين بأنصار من أبناء البيت الايوبى نفسه ، فضلاً عن استعانتهما بجموع الخوارزمية الذين تفرقوا في بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى .

على أن كبار الامراء بالدولة الايوبية بمصر قد استاءوا من الملك العادل الثانى لانشغاله باللهو عن تدبير مصالح الدولة فقبضوا عليه في نهاية مايو ١٢٤٠ وعزلوه واسدعوا شقيقه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فدخل القاهرة في ١٩ يونيو ١٢٤٠ واصبح سلطان مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٩) . على أن الخلاف الذى كان بين الصالح نجم الدين وبين عمه الصالح اسماعيل ، الذى سبق له طرد نجم الدين أيوب من دمشق واستولى عليها ، لم يلبث هذا النزاع ان اشتد وتطور بصورة خطيرة بعد أن استعان الصالح اسماعيل بالصليبيين واتفق معهم على غزو مصر ، ولم يجد الصالح نجم الدين ايوب عندئذ بدأ من الاستعانة بالخوارزمية ، الذين لم تكد تصلهم دعوته حتى اندفع عشرة آلاف منهم في فرحة كبرى نحو بلاد الشام فاغاروا على المدن والقلاع الصليبية حتى وصلوا الى بيت المقدس ، التى كانت بدون ملك أو قائد يحميها ويدافع عنها ، فاستنجد الصليبيين الموجودين بها بأمير انطاكية وملك قبرص وحلفائهم من لحكام المسلمين أمثال ملكا دمشق وحمص . ولكن أحداً منهم لم يسعفهم لشغالهم بمشاكلهم الخاصة .

وهكذا اندفع الخوارزمية واقتحموا بيت المقدس في ١١ يوليو ١٢٤٤

واستولوا عليها في سهولة ، وقد اعملوا السلب والنهب والتدمير في المدينة وخاصة ضد اهاليها من الصليبيين ، وعلى هذا النحو عادت بيت المقدس الى قبضة المسلمين ولم يقدر لجيش مسيحى ان يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى .

وبعد أن قام الخوارزمية بعمليات نهب واسعة النطاق في بيت المقدس وضواحيها ، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالجيش الذى أرسله السلطان نجم الدين أيوب في اكتوبر ١٢٤٤ وكان هذا الجيش بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس وفي ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى – الصليبى قد اتجهت هى الاخرى الى غزة في طريقها الى مصر للاستيلاء عليها واخراج الصالح نجم الدين أيوب منها ، وقد التقى الطرفان الجيش المصرى والخوارزمية من جهة وجيش الصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من جهة اخرى . وفي ١٧ اكتوبر ١٢٤٤ اشتعل القتال بين الطرفين في موقعة غزة ، وفيها حلت الهزيمة الساحقة بجيوش الصليبيين وحلفائهم حتى قدر عدد قتلاهم بأكثر من ثلاثين ألفا ، غير الأسرى الذين سيقوا الى مصر وكان عددهم يقارب الألف .

وقد كانت هذه المعركة أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين ١١٨٧ ، حتى اطلق المؤرخون المسلمون على معركة غزة هذه اسم (حطين الثانية) .

وقد أدت كل هذه الظروف التى احاطت بالصليبيين في الشام وفلسطين وما ترتب عليها من ضياع بيت المقدس من جهة والكارثة التى حاقت بهم في معركة غزة من جهة اخرى الى قلق الغرب الاوروبى وخوفه من ضياع البقية الباقية من الممتلكات الصليبية في الشام وبالتالى التفكير في ارسال حملة صليبية كبيرة لتثأر مما نزل بالصليبيين وتستعيد بيت المقدس لقبضتهم مرة أخرى . وكان أكثر الذين تأثروا بأوضاع الصليبيين في الشام ملك فرنسا لويس التاسع الذى عرف باسم القديس لويس .

وكان عرش فرنسا قد آل اليه في ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦ بعد وفاة والده لويس الثامن ، وكانت والدته هى الملكة بلانش ابنة الفونس التاسع ملك قشتاله ،

التى عرفت بالتقوى والتفانى فى خدمة الكنيسة المسيحية ، والتى عنيت بتنشئة ابنها نشأة دينية صارمة .

وقد دعا الملك لويس التاسع الى حملة صليبية ضد مصر[1] من أجل الاستيلاء عليها ثم عن طريقها يمكنه استخلاص بيت المقدس . وكانت دعوته تلك أثر مرض خطير ألم به في أواخر عام ١٢٤٤ ، أشرف فيه على الموت كما يذكر مؤرخ حياة القديس لويس وهو جوانفيل ، ويستطرد جوانفيل قائلاً ان حدى السيدات اللائى كن يمرضنه ظنت ذات مرة انه قد قضى عليه فارادت تغطية وجهه بغطاء ، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من الفراش ، لم تحتمل رؤية هذا المنظر فقالت انه لايزال حياً .

وبينما هاتان السيدتان في جدلهما حول فراشه ؛ اسبغ عليه الله عز وجل الصحة وانطقه بعد سكون ، وبث فيه القدرة على الكلام ، فطلب اليهما أن تأتياه بالصليب ففعلتا ماطلب .

وقد تعهد لويس منذ ذلك الحين ان يحمل الصليب ويذهب الى الاراضى المقدسة ويستعيد بيت المقدس ليد الصليبيين من جديد ، ايماناً منه ان الله منّ عليه بالشفاء من مرضه لكى يقوم بهذه المهمة التى كرس حياته من أجلها .

اذن فهذه الحملة الجديدة كان ملك فرنسا هو أول من دعا اليها ولم يلبث البابا اينوسنت الرابع ان دعا مضطراً لهذه الحملة بعد أن أرسل بطريرك بيت المقدس الى الغرب الاوروبى سفارة على رأسها واليران اسقف بيروت ، وقد عقد البابا اينوسنت الرابع مجمع دينى في مدينة ليون في الفترة من ٢٨ يونيو وحتى ١٧ يوليو ١٢٤٥ . وبعد ان اتخذت قرارات هامة فى هذا المجمع سمح لواليران بالتحدث فأخذ يفيض في وصف الحالة السيئة التى اضحى فيها

---

(١) هذه الحملة هى المعروفة بالحملة الصليبية السابعة ، ومن أحسن الكتب التى تناولتها كتاب الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، وهو دراسة قيمة مفيدة قائمة على اساس الدراسة التحليلية المتعمقة المتميزة بالاصالة العلمية ، انظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٩ .

الصليبيون بالشام وكيف فقدوا بيت المقدس ، وكيف سقطت زهرة فرسانهم في معركة غزة ، كما أفاض أيضاً في وصف الفظائع التى ارتكبها ضدهم الخوارزمية . وقد تأثر الحاضرون أيما تأثر ، ولم يجد البابا اينوسنت الرابع بداً من الاشتراك في الدعوة للحرب الصليبية وبذل الامتيازات الروحية للمشتركين فيها ، وهو ماجرى عليه عادة البابوات فوعد كل من يشترك في هذه الحملة الجديدة بالغفران التام عن خطاياه وذنوبه بمجرد اتخاذه شارة الصليب. ومن الاهمية بمكان ان نشير هنا الى ان البابا اينوسنت الرابع قد اضطر للدعوة لهذه الحملة على عكس البابوات الذين سبقوه ونادوا بالحروب الصليبية ضد المسلمين ، أما هذا البابا فقد كان الخلاف بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن مشتعلاً على أشده في الغرب الاوروبى وذلك في حلقة من حلقات الصراع المرير الذى قام بين البابوات من ناحية والاباطرة الالمان من ناحية أخرى حول المبدأ الذى ينادى بسمو البابوية وسيادتها على الاباطرة والملوك وكافة الحكام العلمانيين والذى استمر لمدة قرنين من الزمان . وكان البابا اينوسنت لايهمه ارسال حملة صليبية ضد المسلمين ولا استرداد بيت المقدس بقدر مايهمه انتصاره على الامبراطور فردريك الثانى ، وقد عقد البابا مجمع ليون من أجل توقيع قرار الحرمان على الامبراطور فردريك الثانى أولا وقبل كل شيء . وقد حاول مندوب الامبراطور فردريك الثانى في مجمع ليون ان يوفق بين البابا والامبراطور ووعد البابا ان الامبراطور سوف يساهم بجهوده في توحيد الكنيستين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وهو الحلم الذى ظل يراود البابوية ، وكذلك استعداد الامبراطور لمحاربة الخوارزمية والمسلمين واعادة الاستقرار والأمن الى ربوع الممتلكات الصليبية في الاراضى المقدسة ، ولكن البابا رفض ذلك كله . وقد توسط القديس لويس ملك فرنسا بين الطرفين أكثر من مرة والتمس من البابا رفع قرار الحرمان عن الامبراطور فردريك ، ولكن جهوده باءت بالفشل ورفض البابا رفضاً باتاً التماس لويس .

ولذلك كله فان البابا اينوسنت الرابع لم يترك وسيلة إلا واستخدمها من أجل احباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل العمل على تعطيلها وتأخير قيامها حتى يتسنى له استخدام القوات الصليبية ضد عدوه اللدود فردريك

الثانى الذى كرس البابا جهوده كلها من أجل القضاء عليه ولم يترك سلاحا دينياً كان أم دنيـوياً إلا واستعمله لخدمة هدفه هذا

وهكذا يمكن القول بأن البابا اينوسنت الرابع اضطر للدعوة للحملة الصليبية الجديدة حتى لا يثير ضده شعور المسيحيين فى الغرب الأوروبى بعد أن أوضح واليران مدى حاجة الصليبيين فى الأراضى المقدسة إلى نجده عاجلة . ان كان البابا فى قراره نفسه لا يريد قيام هذه الحملة .

وقد أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يحث البابا اينوسنت على ارسال مندوبين عنه للتبشير بالحملة فى ربوع اوروبا ، فأرسل البابا مندوبا عنه يدعى ادون دى شـارتر للتبشير بالحملة فى فرنسا ، كذلك انتشر بعض الدعاة للحملة فى مختلف انحاء أوروبا داعين لها . وقد كانت الاستجابة فى فرنسا أكثر من أى بلد أوربى آخر . خاصة وأن ملكها لويس أخذ يدعو بنفسه لهذه الحملة ، وكان أول من أدرج اسمه فى سجل الحرب الصليبية الجديدة . وحذا حذوه أشقائه الثلاثة وهم روبرت كونت أرتوا والفونس كون بواتييه ، وشارل أنجو وكذلك اشترك فى هذه الحملة جون لورد جوانفيل الذى أرخ لهذه الحملة . وكان أحد فرسانها .

ويقال أن الملك لويس قد لجأ إلى حيلة طريفة من أجل أن يكسب فى هذه الحملة أكبر عدد ممكن من نبلاء وبارونات مملكته فقد كان من عادة لويس أن يقدم الهدايا إلى كبار رجال دولته فى عيد الميلاد من كل عام . وفى ليلة عيد الميلاد لسنة ١٢٤٥ دعاهم كعادته فى كل عام واهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر أن يحاك عليه علامة الصليب ، وحين ارتدوا هذه الأوشحة شاهد كل منهم علامة الصليب على كتف زميله ، فغمرهم السرور ولم يجدوا بدا من تنفيذ رغبة مليكهم وانخرطوا جميعهم فى سلك الحملة الصليبية الجديدة .

وقد أخذ لويس فى توفير احتياجات الحملة من السفن البحرية ، ولما كان لا يملك شيئا منها فقد استعان فى ذلك بسفن جنوا ومرسيليا التى تم استئجارها منها ، اما البندقية فقد رفضت أن تمده باية سفن نظرا لعلاقاتها الطيبة بمصر .

كذلك ارسل لويس قبل خروجه على رأس الحملة بحوالى عامين جماعة من رجاله إلى قبرص لشراء واعداد ما يحتاجه جيشه من المؤن والنبيذ وغيرها مما يحتاجون اليه ، وكانت قبرص قد اتخذت كنقطة تجمع للصليبيين المتوجهين إلى مصر .

أما عن توفير المال اللازم للانفاق على الحملة فقد تم جمعه من الضرائب التى فرضت على الاكليركيين والعلمانيين الذين لم يشتركوا بشخصهم فى الحملة .

وبعد أن نظم لويس أمور الحملة من حيث النفقات اللازمة لها ومن حيث المؤن ، قام بتنظيم شئون مملكته وأناب عنه والدته الملكة ابلانش صاحبة قشتالة لتدير شئون المملكة أثناء فترة غيابه ، كما اقسم له كبار رجال مملكته يمين الولاء ومراعاة حقوقه والاخلاص له ولابنائه الصغار وعدم القيام بمحاولات لاغتصاب ملكة اثناء تغيبه فى مهمته المقدسة فى الشرق .

وبعد ثلاث سنوات منذ الدعوة لهذه الحملة فى عام ١٢٤٥ ، وبعد أن تم اعداد كل شىء ، غادر لويس باريس فى ١٢ يونيو ١٢٤٨ وكان بصحبته زوجته مرجريت وشقيقيه شارل وروبرت ، أما شقيقة الثالث الفونس فقد ظل بفرنسا يقوم بجمع جموع أخرى ووعد باللحاق بالحملة فيما بعد على رأس هذه الجموع .

وقد مر لويس بمدينة ليون حيث كان البابا اينوسنت الرابع موجودا بها ، فافضى اليه لويس باعترافه وحصل منه على صك الغفران التام من خطاياه ، ولم ينس لويس أن يتوسل إلى البابا من أجل الصفح عن فردريك الثانى هوهنشتاوفن ولكن البابا رفض . ومن ليون اتخذ لويس طريقه إلى ميناء أجمورت فى جنوب فرنسا ، ومنه ركب السفن ومن معه فى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨ متخذين طريقهم إلى قبرص . وفى ١٧ سبتمبر ١٢٤٨ وصلوا إلى ميناء ليماسول فى قبرص حيث نزل الملك لويس ومن معه إلى أرض الجزيرة التى اتخذت نقطة تجمع للجيوش الصليبية المشتركة فى هذه الحملة كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

وكان الرجال الذين ارسلهم لويس إلى قبرص قبل وصوله اليها بعامين قد نجحوا فى تكديس المؤن التي سوف تحتاج اليها الحملة . ويصف جوانفيل ذلك فيقول « حين وصلنا قبرص الفينا الملك بها ، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة ، وأعنى بها ما نحتاجه من المئونة والطعام والمخازن ، وكانت حوائج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر ، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك ، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى ، فاذا ما نظرت اليها من بعد خيّل اليك انها بيوت كبيرة . وكدسوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول ، فاذا نظرت اليها خيل اليك أنك ترى جبالا ، ذلك لأن الأمطار التى طال سقوطها عليها جعلتها تتفتح فتبدو جوانبها لمطالعيها كأنها الحشائش الخضراء ، فلما عمدوا إلى أخذ ما يحتاجونه منها فى مصر ، قطعوا الطبقة العليا المعشوشبه ، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين ، كما لو كان قد جمعا منذ أمد قريب » .

وكانت جزيرة قبرص تخضع وقتئذ لاسرة لوزجنان منذ أن باعها الملك ريتشارد ملك إنجلترا إلى جاى لوزجنان ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وفى ذلك الوقت كان حاكمها يدعى هنرى الأول لوزجنان الذى تلقى لويس وحملته بالترحاب فى عاصمته نيقوسيا ، وقد امضت الحملة فى قبرص مدة ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ – مايو ١٢٤٩) والواقع أن هذه الشهور الثمانية التى قضتها الحملة فى قبرص قد اساءت اليها أكثر مما أفادتها ، ذلك ان الصليبيين قد استهلكوا معظم المؤن التى تم جمعها لتزويد الحملة اثناء هجومها على مصر ، لذلك استدعى الأمر تدبير مؤن جديدة لامدادها بها ، كذلك فان الصليبيين أخذوا فى انفاق الأموال التى كانوا قد تزودوا بها من أجل الانفاق على فرسانهم أثناء الحرب مع المسلمين ، وقد أخذ الفرسان يهددونهم بالعودة إلى الغرب الأوروبى إذا لم يستمروا في دفع رواتبهم ، وكان أن اضطر المللك لويس إلى تزويد بعضهم بالمال اللازم للانفاق على فرسانهم . أضف إلى ذلك أن اخبار الحملة وصلت إلى سلطان مصر واعطت فترة الثمانية أشهر التى قضاها الصليبيين في قبرص الفرصة له لمواجهة الحملة الصليبية وتحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمقاتلة والمؤون نظراً لتوقعه أن تكون دمياط هى المدينة التى سيبدأ

الصليبيون بالهجوم عليها .

وكان يجلس على عرش مصر فى تلك الفترة الملك نجم الدين أيوب ، الذى كان سياسيا محنكا ، وأمتاز باشرافه الدقيق على جميع شئون الدولة والبت بنفسه فى جميع أمورها وقد تهيأ لمصر خلال حكمة الأمن والإستقرار الداخلى

وساعد ذلك على ازدهار التجارة ، التى أمدت خزينة السلطان بمورد لا ينضب من المال ، أنفق معظمه على البحرية والجيش وبناء الإستحكامات والقلاع مما كان له أبعد الأثر فى دفع عدوان الصليبيين عن أرض مصر .

ويوضح لنا بعض المؤرخين المسلمين أن أخبار حملة لويس التاسع كانت تصل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب عن طريق الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، الذى ظل على علاقات الود والصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب كما كان من قبل مع والده الكامل . وكما يذكر المقريزى والعينى أرسل الإمبراطور فردريك إلى الصالح نجم الدين برسول متنكر فى زى تاجر يخبره أن لويس التاسع عازم على السير بجحافلة إلى أرض مصر لامتلاكها . وكان الصالح نجم الدين أيوب موجودا بدمشق ، فأسرع بالعودة إلى مصر ، ونزل باشموم طناح فى ١٨ مايو ١٢٤٩ . وأخذ فى العمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه إنها كانت هدف الصليبيين فى حملتهم السابقة (الحملة الخامسة) وخوفه من أن يجرى عليها مثل ما جرى أيام والده الملك الكامل وقد زود دمياط بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، كما عهد إلى طائفة من عرب بنى كنانه وهم قوم مشهورون بالشجاعة والاقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد الصليبيين . وقد عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وكان مقدم العساكر بالدفاع عن دمياط ، فنزل الأمير فخر الدين بعساكره على البر الغربى لدمياط حتى يقاتل الصليبيين عند وصولهم وبحول بينهم وبين النزول على أرض مصر .

وفى يوم السبت ٢٢مايو ١٢٤٩ أبحر الملك لويس من ليماسول بقبرص ميمما

وجهه سبطر مصر ويصف جوانفيل منظر إقلاع الملك وجيوشه التى بلغ عددها ٥٠,٠٠٠ جندى فيقول : « فكانت سفرته يوم السبت وبصحبته الجميع ، وما كان أبدع منظر البحر وهو يبدو للعيان على أمداد البصر ، مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ».

على أن ريحا عنيفة هبت من ناحية مصر شتتت السفن الصليبية ودفعتها دفعا نحو عكا وغيرها من البلاد القريبة من قبرص ، وكان من نتيجة ذلك إنه لم يتبق مع الملك لويس من فرسانه البالغ عددهم الألفين والثمانمائة سوى سبعمائة فارس فقط .

وبعد سكون العاصفة تابعت الحملة رحلتها صوب مصر ، ووصلت أمام الشاطىء الغربى لفرع دمياط يوم الخميس ٣ يونيو ١٢٤٩ وهو الشاطىء المعروف باسم جيزة دمياط . وقد ابصر الصليبيون أمامهم على الشاطىء كتائب السلطان . ويقول جوانفيل عنها انها « كتائب يستحب النظر اليها ، فقد كانت اسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى سامعيها » .

وقد بادر الملك لويس بمجرد رسوهم امام شاطىء جيزة دمياط بارسال رسول إلى السلطان الصالح نجم الدين ايوب ليسلمه رسالة من الملك لويس يطلب فيها من السلطان الاستسلام ويستعرض فيها قوته من قبيل التخويف والارهاب وكانت رسالة لويس إلى السلطان كما يلى :

« بسم الله الفصيح صاحب الدين الصحيح عيسى بن مريم المسيح ، أما بعد ، فانه لم يخف عليك ولا على كل ذى عقل ثاقب انك امين هذه الملة الحنيفية ، وانا أمين هذه الملة النصرانية وليس يخفى عنك ما فتحنا من بلاد الاندلس ، وأخذنا النساء والعذارى وفرقناهم على ملة النصارى ، وجعلنا رجالهم أسارى ، ونساءهم حنيهم حيارى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية لما فتحنا بلاد المهدية وعتونا على ثغر الاسكندرية فلا تلجىء العالم إلى العسف ولا يسمهم بسيماء السخن ، نقتل العباد ، وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد فان

قابلتنا بالقتال فقد اوجبت على نفسك ورعيتك النكال ورميتهم في أسر الوبال ، ويكثر فيهم العويل ولا يرم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، ان تنقل إلى عندنا ما عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظائم الايمان ، أن تكون لنا نائبا على مر الازمان . وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوان ولا تكون فيك فترة ولا توان لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك اليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول ياليت ، وتضع الحرب اوزارها وتشعل نارها ، ويتعالى شرارها ويقتم فنارها ، وتأخذ منكم بنارها ، فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد . فان كانت البلاد لك فهدية ألقيت بين يديك ، وان كانت لنا فيدنا العليا عليك ، إذا أستحققنا امارة الملتين وحكم الشريعتين وبيد الله تعالى السعادة وهو الموفق للارادة » .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يأبه لتهديد لويس له ورد عليه برسالة استخف فيها بتهديداته ونعته بالمغرور ، وأخذ يستعرض ويشيد ببطولات المسلمين وقوة بأسهم ، وكان رد السلطان على رسالة لويس كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم الظالمين ، من عند الزائدعن حرم المسلمين ، والقارىء كتاب رب العالمين المنزل على خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الانصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين . أما بعد فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وها أنا قد اتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والاثقال ، والقيود والاغلال ، فان كانت لك فانت الساعى وقد آمنت الناعى ، وان كانت عليك فانت الباغى لحتفك والجادى انفك بظلفك ، فان رأيت الا تقيم بين الفئتين ضعفنا ، فلذلك من الله علينا وعليك مننا ، وان غير ذلك فقد قال الله تعالى « افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » ولما وصل الينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهديه الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن يجد له وليا

مرشدا . وفى كتابك تهددنا بجيوشك ، وابطالك وخيلك ورجالك،أو ما تعلم انا نحن ارباب الحتوف وفضلات السيوف ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ولا عدم منا فارس إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا وجد حروبنا ، لرأيت فرسانا استنهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعفيت عن يدك بسن الندم ولأحزنت تحزيك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك ، فهو يوم اوله لنا وآخره عليك ، إذا اتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النمل وآخر سورة ص : « اتى أمر الله فلا تستعلجوه » « ولتعلمن نبأه بعد حين » . هنالك تتطاول نحوك الاعناق ، وتشحص صوبك العيون ، ويشوبك الويل وتسوء بك الظنون « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وهكذا يتضح من هذا الرد أن الملك الصالح نجم الدين ايوب لم يهاب الجيوش الصليبية وعلى رأسها ملك فرنسا كما أنه لم يأبه لتهديداته .

وبعد أن وصل هذا الرد للملك لويس جمع باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون منهم بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله الذين شتتهم العاصفة ، لا سيما وانه لم يبق منهم معه إلا الثلث فقط . لكن هذه المشورة لم تصادف قبولا عند الملك لويس ، وقد رفض رأيهم هذا وكانت حجته فى ذلك أن كل تأخير من جهتهم يقوى ساعد المسلمين ، كما أنه لا يوجد ميناء آخر قبل دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيه رجاله ، وبناء عليه فان اية رياح قوية تهب قد تدفع سفنهم إلى بلاد أخرى كما حدث لهم من قبل أمام قبرص . وقد تغلب رأى لويس وتقرر أن يبدأ الصليبيون فى النزول على الأرض المصرية يوم السبت ٥ يونيو ١٢٤٩ .

أما عن المسلمين بمصر فان قواتهم كانت مرابطة على شاطىء جيزة دمياط تحت قيادة الامير فخر الدين كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وحينما رأوا سفن الصليبيين تقترب من الشاطىء ارسلوا أربعة سفن حربية من أجل الاستكشاف ومعرفة مدى استعدادات الصليبيين ، وقد اشتبك معها الاسطول الصليبى وتمكن من اغراق ثلاثة منها أما الرابعة فنجحت فى الافلات وعادت إلى

الشاطىء لتخبر الأمير فخر الدين بضخامة أستعدادات هذه الحملة الصليبية .

ووفقا لما تم الاتفاق عليه بين الملك لويس وقواته فقد بدأو ينزلون على الشاطىء ولما كان الشاطىء ضحلا لم تتمكن السفن الكبيرة من الاقتراب منه وظلت فى عرض البحر وركب الصليبيون الزوارق الصغيرة كما خاض بعضهم فى المياه بنفسه ومن بينهم الملك لويس واشتبكوا مع المسلمين فى القتال ، وقد حاول الفرسان المسلمين اعاقة نزول الصليبيين على الشاطىء واستماتوا فى القتال . ورغم ذلك تمكن الصليبيون من النزول على الساحل ونصبوا خيامهم .

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الطرفين الإسلامى والصليبى استمرت من الصباح الباكر حتى الظهيرة ، وانتهت بانتصار الصليبيين وقتلوا عدد من الامراء المسلمين البارزين .

وقد حدث حادث عاد بأسوأ النتائج على الجانب الإسلامى وان كان نفس الحادث قد افاد الصليبيين وكسبوا عن طريقه امتلاك مدينة دمياط بلا ادنى حصار أو ادنى قتال ، ويتلخص ذلك الحادث فى أن الأمير فخر الدين مقدم العساكر الإسلامية قد أرسل ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذى كان معسكرا عند اشموم طناح ، يخبره بنبأ نزول الصليبيين على ساحل جيزة دمياط ، ولما لم يتلق الامير فخر الدين جوابا على رسائله الثلاث ، ولما كان يعلم ان السلطان مريضا ، فقد اعتقد أنه مات ، ويقال ان الأمير فخر الدين كانت له اطماع فى الملك فخشى ان يختار المماليك سلطانا آخر غيره ، فبادر بالانسحاب من جيزة دمياط هو وقواته حتى لا تفوته الفرصة لتحقيق اطماعه وكان انسحابهم اشبه بالفرار وعبروا جسرا كان يصل بين جيزة دمياط ومدينة دمياط ذاتها ، وفى عجلتهم نسوا أن يقطعوا ذلك الجسر ، وحين رأى أهالى دمياط أن الأمير فخر الدين قد فر ، تركوا هم الآخرون مدينتهم وفروا ، وحذا حذوهم بنى كنانة الذين وكل اليهم السلطان مهمة الدفاع عن دمياط ، وقد اشعلوا النيران فى سوقها حتى لا يقع فى يد الصليبيين ما يحتويه السوق من بضائع ونفائس يفيدون منها واتجهوا

جميعهم إلى اشموم طناح حيث المعسكر الإسلامى .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة ، وقد شعر الصليبيون بخلو المدينة من الأهالى ووسائل الدفاع ، وفكروا فى أنها ربما تكون خدعة ، فارسل لويس بأحد فرسانه لاستطلاع الأمر ، فعاد الفارس مؤكدا له خلوّها من أهلها ، وقال انه جاس خلال بيوتها .

وقد دخلت جيوش لويس التاسع مدينة دمياط فى سهولة بالغة فى ٦ يونيو ١٢٤٩ . وقد وجدوا المدينة خالية من البضائع ويقول جوانفيل فى هذا الصدد أن المسلمين « كبدونا خسارة جمة باشعالهم النار فى سوق المدينة الذى كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وكانت الخسارة التى نجمت عن هذا العمل كبيرة لا تعادلها – لا قدر الله – سوى أن يقوم أحدهم باشعال النار فى الجسر الصغير بباريس » .

وقد ألقى المؤرخون المسلمون مسئولية دخول الصليبيين دمياط على عاتق الأمير فخر الدين واتهموه بالخيانة والجبن وسوء التصرف ، وكان تصرفه هذا سببا فى تحقيق الحملة الصليبية السابعة نجاحا كبيرا باستيلائها على دمياط دون أن تراق دم جندى ، واحد من جنودها أو كما قال المؤرخ المسلم المقريزى أن استيلاء الصليبيين على دمياط كان « صفوا عفوا » « بغير كلفة ولا مؤنة حصار » . وإذا قارنا سقوط دمياط على هذا النحو بعد يوم واحد من نزول الحملة إلى الشاطىء وما حدث اثناء الحملة الصليبية الخامسة التى لم تستطع الاستيلاء على دمياط الباسلة إلا بعد حصار دام اشهر طويلة ، رغم أن دمياط وقتها لم تكن على نفس الدرجة من الحصانة والاستعداد للحصار مثل ما كانت عليه وقت استيلاء الحملة الصليبية السابعة عليها ، أدركنا على الفور مدى الجرم الذى ارتكبه الامير فخر الدين الذى اعتبر بعض المؤرخين تصرفه هذا وصمة عار فى تاريخ حياته .

ولم تغب هذه المقارنة عن المؤرخ المقريزى الذى يعجب من ذلك ويقول : « وقد كانت دمياط أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعددا منها فى

هذه النوبة ، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة ، وعندما فنى اهلها بالوباء والجوع ، وكان فيها هذه المرة ايضا جماعة من شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئا » .

أما المؤرخ أبو المحاسن فقد اعتبر سقوط دمياط فى يد الصليبيين بهذه السهولة « مصيبة لم يجر مثلها » وقد كانت كذلك بالفعل ، وقد اشتد حزن وغضب الملك الصالح نجم الدين ايوب ورغم مرضه إلا أنه أمر بشنق كبار أمراء بنى كنانة ، وعبثا حاولوا الدفاع عن انفسهم وتبرير فرارهم والقاء المسئولية على الأمير فخر الدين . ولكن الملك الصالح أصر على تنفيذ الشنق فيهم وكان عددهم حوالى الخمسين أميراً . وقد عزز عقابه هذا بفتوى من العلماء ورجال الدين . وبعد أن تم شنق هؤلاء الأمراء أمر بصلبهم على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم ، أما المماليك والأمير فخر الدين فقد أخذ الملك الصالح يؤنبهم على فعلتهم هذه وقال لهم « ما قدرتم تقضون ساعة بين يدى الفرنج » . ويقال أن الملك الصالح اراد أن يقتل الأمير فخر الدين ولكنه خشى من ثورة المماليك خاصة وأنه فى موقف حرج والعدو يهدد بالزحف صوب القاهرة وامتلاك كافة الديار المصرية وقد كتم غيظه وحنقه في انتظار انتهاء الغمة وتتاح له الفرصة لعقابه . وقد تخوف منه المماليك وارادوا القضاء عليه ولكن الامير فخر الدين نهاهم عن ذلك وقال لهم أن السلطان على وشك الموت ، فان مات فقد استراحوا منه وان لم يمت فهو بين ايديهم يفعلوا به ما يشاؤون .

وقد أخذ المرض يشتد على الملك الصالح يوما بعد يوم ، وبعد سقوط دمياط فى يد الصليبيين نقل معسكره من اشموم طناح إلى المنصورة ، ونزل بقصر كان للملك الكامل يطل على النيل ، وأخذ الجند يعملون على زيادة تحصينات المدينة وأقاموا الأسواق بها . كما جاءت سفن الاسطول المصرى وعليها المقاتلين وعسكرت فى النيل أمام المنصورة كذلك اجتمع بالمدينة اعداد كبيرة من المتطوعة والعربان وعامة الناس للجهاد ضد الصليبيين والحيلولة بينهم وبين الوصول إلى القاهرة .

أما الصليبيون فى دمياط فانهم قد استولوا على كل ما وجدوه فى المدينة من الاسلاب والغنائم كما حولوا جامعها إلى كنيسة اطلقوا عليها اسم كنيسة العذراء ، وعينوا لها بطريركا كاثوليكيا . والملاحظ أن الصليبيين لم يستغلوا انتصارهم هذا ويواصلون فتح باقى البلاد المصرية خاصة بعد أن أصيب المسلمون فى مصر بالذهول والارتباك نتيجة لضياع دمياط ، ولكنهم ظلوا حوالى الخمسة أشهر فى حالة جمود عسكرى بدمياط ، وكان السبب فى ذلك كما يذكر جوانفيل أن الملك لويس اراد الانتظار حتى وصول أخيه كونت بواتييه على رأس النجدة التى أخذ فى جمعها من فرنسا ، وربما ارادوا بهذا الانتظار ألا يقعوا فى نفس الخطأ الذى ارتكبته الحملة الخامسة عندما زحفت وقت فيضان النيل ، ولما كان الفيضان وشيكا فقد آثروا الانتظار حتى ينتهى .

على أن هذه الأشهر التى قضاها الصليبيين بدمياط فى حالة خمول وركود عسكرى ، قد افادت المسلمين ، الذين عملوا على تنظيم انفسهم وتقوية استحكامات مدنهم ، كما أخذوا يشنون الغارات الليلية ويتخطفون الجند الصليبيين ، هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون يفرطون فى اللهو سواء الأمراء منهم أو البارونات أو عامة الجيش ، ويصف جوانفيل هذه الأمور فيقول :

« أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بما لهم للتصرف فيه فى الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة ، وأفرطوا افراطا جما فى تقديم اللحوم .

أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات ، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر ، ان عزل الملك الكثيرين من رجاله ، فلما سألته عن الدافع الذى حمله على ذلك أنبأنى أنه وجد – بالتأكيد – أن الذين عزلهم قد أقاموا اماكن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطة ، وأن ذلك العمل منهم كان فى الوقت الذى كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم » .

ولم يكن هذا فقط ما عانت منه الحملة فى دمياط ، ولكنها عانت كذلك من المشاحنات العديدة التى قامت بين العناصر المختلفة فى الحملة وعلى سبيل المثال كان الفرنسيون يعادون الانجليز ، وكانت جماعات الرهبان المسلمين المشتركين فى الحملة مثل جماعات الداوية والاستبارية دائمى النزاع والاختلاف فى الرأى .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل لقد أخذت المؤن تنفذ ، كما أخذت العواصف العنيفة تجتاح الوجه البحرى ، وتسببت فى تحطيم ٢٤٠ سفينة للصليبيين .

وأخيرا وفى يوم ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ وصل كونت بواتييه مع باقى الجيش وقد اجتمع الملك لويس مع كبار رجال الحملة للتشاور فى موضوع الطريق الذى ستسلكه الحملة ، وهل سيكون طريقهم إلى القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، أم إلى الاسكندرية ، وكاد الاجتماع أن يكون تاما بينهم على سلك الطريق إلى الاسكندرية ، ولكن روبرت كونت ارتوا عارضهم وأصر على الزحف على القاهرة أولا على اعتبار ان سقوط العاصمة يعنى سقوط مصر كلها فى يدهم ، وعزز رأيه بقوله أن من يريد أن يقتل الافعى لابد له أن يبدأ برأسها . وقد لقى هذا الرأى تأييد الملك لويس . وفى يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ غادر الصليبيون دمياط فى طريقهم إلى القاهرة سالكين نفس الطريق الذى سبق أن سلكته الحملة الصليبية الخامسة على مصر . وتركوا مدينة دمياط فى ظل حراسة قوية ، وبقيت بها الملكة مرجريت زوجة لويس التاسع .

فى ذلك الوقت أخذ المرض يشتد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وفى ليلة الاثنين ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ توفى السلطان. وكان للسلطان أربعة ابناء توفوا جميعا فى حياة والدهم فيما عدا واحداً فقط هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه ، وكان وقتذاك خارج البلاد المصرية يحكم نائبا عن ابيه فى حصن كيفا ، وهنا برزت زوجة السلطان الصالح نجم الدين ايوب ، لتقوم بدور بارز سجله لها التاريخ ، وكانت من المماليك اعتقها نجم الدين وتزوجها وانجبت له

ابنا يدعى خليلا مات فى حياة أبيه ، واصبح يطلق عليها اسم «ام خليل» ، وان كان اسمها الاصلى هو شجر الدر

لقد اظهرت شجر الدر حكمه ومهارة كبيرة وبعد نظر ، إذ ادركت انه إذا تم اعلان نبأ وفاة زوجها سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب فان ذلك سيحدث بلبلة وتشتيتا لقوة الجند وربما صراعا بين الأمراء على الحكم ، لذلك فقد اخفت هذا النبأ إلا عن اثنين من الرجال كانا موضع ثقتها وهما الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن وكان اقرب الناس إلى السلطان نجم الدين أيوب . وقد وضعت جثة السلطان فى تابوت وتم نقله فى سفينة نيلية من المنصورة إلى القاهرة حيث تم دفنه فى القلعة القائمة فى جزيرة الروضة حيث توجد ثكنات المماليك البحرية . وحرصت شجر الدر على أن يستمر كل شيء على ما هو عليه وكأن السلطان حى يرزق ، فاستمر الاطباء موجودين بقصر السلطان حتى يظن الناس أن السلطان لا يزال مريضا ، وظلت المكاتبات الرسمية تصدر باسم السلطان وتوقيعه ، ويقال أن شجر الدر كانت بارعة فى تقليد توقيع السلطان .

كذلك فان شجر الدر أبدت مروءة واخلاصا يفوق الحد لابن زوجها المعظم توران شاه ، فقد جمعت الامراء وطلبت منهم باسم الصالح نجم الدين ايوب ان يحلفوا له ثم من بعده لأبنه المعظم توران شاه المقيم بحصن كيفا ، وكتبت إلى نائب السلطان بالقاهرة تخبره بذلك . وقد نفذ الأمراء والجند رغبة السلطان وحلفوا له ولابنه المعظم توران شاه ، واصبح يخطب له على المنابر بعد ابيه ونقش اسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد ابيه . وبعد ذلك اسرعت شجر الدر إلى مكاتبة توران شاه وارسال الرسل واحدا تلو الآخر لاستدعائه إلى مصر . لكن الاحداث اثبتت أن المعظم توران شاه كان شخصا سيء الاخلاق بدلا من أن يحفظ لزوجة ابيه هذا الجميل ويكرمها ، فانه أخذ يسيء اليها كما سنرى فيما بعد .

نترك السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه فى طريقه إلى مصر ، ونرى

ما فعله الصليبيون بعد مغادرتهم دمياط قاصدين القاهرة ، فقد وصلوا إلى قرية فارسكو يوم الخميس ٢ ديسمبر ١٢٤٩ دون أن يواجهوا بمقاومة تذكر من جانب المسلمين . وواصل الصليبيون زحفهم مسرعين تاره ومتباطئين تاره أخرى وقد حدث اشتباك عنيف بين مقدمتهم وكانت من الفرسان الداوية ومع قوات المسلمين فى منطقة تقع بين فارسكور وشارمساح ، وقد انتهى هذا الاشتباك بانتصار الصليبيين الذين واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى شارمساح ثم إلى البرامون ومنها وقفوا عند منطقة شمالى بحر اشمون واصبح لا يفصل بينهم وبين القوات الإسلامية غير بحر اشموم . وقد استقر الصليبيون فى هذه المنطقة وأقاموا معسكرهم فيها وحصنوه عن طريق بناء المتاريس والخنادق ، واستعدوا لمنازلة المسلمين .

أما القوات الإسلامية فكانت تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وهو نفسه الذى تسبب فى الكارثة التى حلت بدمياط ورغم ذلك ، فانه ظل محبوبا من الناس فعهد اليه بقيادة الجيوش ومواجهة الصليبيين إلى أن يصل المعظم توراه شاه .

وقد عسكرت القوات الإسلامية على الضفة الأخرى المواجهة للصليبيين وأصبح يفصل بينهما بحر اشموم ، وكان من الطبيعى أن يحدث مناوشات واشتباكات بين الطرفين ، وحاول الصليبيون أن يردموا مجرى بحر أشموم ويقيموا جسرا يتمكنوا عن طريقه من العبور للضفة الأخرى والالتحام مع المسلمين وجها لوجه ، وقد امضوا ثلاثة اسابيع وهم يعملون فى اقامة هذا الجسر حتى انتهوا منه ، وبمجرد انتهائهم قام المسلمون بتخريبه فى يوم واحد ، ويصف جوانفيل هذه الحادثة بقوله :

« ورأى الشرقيون افساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا انفسنا ثلاثة اسابيع فى عمله ، ودلك أنه كلما رد منا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من

جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها » وقد فاجأ المسلمون الصليبيون بسلاح جديد لم يعرفه الغرب الأوروبى فى تلك الفترة وأن كان البيزنطيون قد عرفوه منذ زمن بعيد منذ القرن السابع الميلادى ومنهم انتقل إلى المسلمين ، وكان هذا السلاح هو النار الاغريقية ، وهى عبارة عن مركب من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ قابل للاشتعال يدفع فى ماسورة المدفع فى اتجاه المكان المراد احراقه وعند سقوطه ينتشر فى انحاء المكان فلا يتركه إلا بعد أن يصبح رميما ، وأول من اخترع هذه النار هو مهندس اغريقى اسمه كالينيكس من مدينة هليوبوليس بالشام .

وقد انزعج الصليبيون أيما انزعاج عند رؤيتهم لهذا السلاح الجديد الذى فاجأهم المسلمون به ، ولنرجع إلى جوانفيل ايضا لنستقى منه المعلومات عن مدى الفزع الذى أصاب معسكرهم وعلى رأسهم الملك لويس من جراء الخسائر التى انزلتها بهم هذه النيران يقول جوانفيل :

« حدث فى ذات ليلة من ليالى حراستنا الابراج المشرفة على الطرق المقفلة أن جلب المسلمون آلة تعرف « بالمقلاع » لم تكن لديهم قبل ذلك الحين ، ووضعوا النار الاغريقية فى حمالة الآلة ، فلما طالع لورد وولتر الفارس الطيب الذى كان معى قال : أيها اللوردات : اننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن ، ذلك انهم إذا اضرموا النيران فى ابراجنا وبقينا حيث نحن فلابد اننا هالكون بالحريق ، وإذا غادرنا اماكن دفاعنا هذه التى وكلت حراستها الينا فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا الخطر سوى الله وحده ، لذلك فان النصيحة والرأى عندى ان ننطرح على ايدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو مخلصنا ان يقينا شر هذا الخطر .

فلما أخذ والى اطلاق النار انطرحنا ارضا على معاصمنا وركبنا كما علمنا ، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقفلة ، واستقرت امامنا فى الحفرة التى كان الجيش يعمل على اطفاء النار بها ، وكان المسلمون لا يستطيعون اصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحى الجيش اللذين أمر بهما الملك ،

فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافىء.

وكانت النار الأغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من النار، ذات ذنب يقارب الرمح طولا، وكان يصحبها صوت هائل كدوى الرعد، وكأنها طائر فى الجو تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شىء وكأنه فى وضح النهار، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة.

وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الاعريقية حلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا «أيها الرب السيد الحنون احفظ لى شعبى». وانني لمعتقد حقا أن صلواته قد اسعفتنا فى شدتنا وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل الينا أحد حجابه يسألنا كيف اصبحنا وعما إذا كانت النار اصابتنا بضر ما».

وازاء هذا السلاح الجديد الذى انزل ابلغ الضرر بالمعسكر الصليبى، بعد أن راح المسلمون يستعملونه فى الليل وفى النهار، احتار الصليبيون ماذا يعملون وراح الملك لويس يجتمع مع امرائه وباروناته للتشاور فيما ينبغى أن يفعلون، دون أن يصلوا لحل لهذه المشكلة.

لكن بعض الخونة من الأعراب وربما كانوا من غير المسلمين قد دلوا الصليبيين على مخاضة سرية يستطيعون عن طريقها عبور بحر اشموم والوصول إلى معسكر المسلمين خارج المنصورة، وقد رحب الصليبيون بهذا العرض وبالفعل اتفقوا على خوضها وكانت أول فرقة من الفرسان تخوض تلك المخاضة وتصل إلى معسكر المسلمين فى يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ تتألف من الداوية ورئيسهم وفرقة اخرى بقيادة روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس وفرقة انجليزية صغيرة، وقد هجمت هذه الفرقة على معسكر المسلمين على حين غرة ففوجىء المسلمون بهم وتشتت شملهم ولكن الامير فخر الدين قائد القوات

الإسلامية اندفع بين صفوف الصليبيين مستميتا فى الدفاع ، ولما كان قد نسى فى عجلته أن يرتدى درعه ، فقد اصيب فى جنبه وتلقفته سيوف الصليبيين واجهزوا عليه ، وهكذا سقط هذا الامير شهيدا فى ميدان القتال ومحى عن نفسه العار الذى لحقه بعد فراره وتسببه فى سقوط دمياط فى يد الصليبيين .

وهكذا تم للصليبيين احراز هذا الانتصار على المسلمين الذين فروا إلى المنصورة ، واحتموا فى داخلها وقد اصر روبرت كونت ارتوا على اقتحام مدينة المنصورة مع قواته وعدم انتظار وصول قوات باقى الجيش الصليبى ومعهم الملك لويس . وقد نصحه من معه بالتمهل دون جدوى ، وهكذا سعى لحتفه ، ذلك أنه اقتحم المنصورة مع قواته مطارداً القوات المسلمين وتوغلوا داخل شوارع وازقة المنصورة ، وكان الجيش الإسلامى قد استرد شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة وكان من حسن الحظ أن وجد فى شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى رئيسا قديرا ، جمع القوات الإسلامية المشتتة وتعقب الصليبيين داخل المنصورة منزلاً بهم اشد أنواع القتل ، فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها انهال عليهم سكانها بالضرب والرمى بالحجارة والطوب . وقد وصف هذه المعركة أحد المؤرخين المسلمين مصورها تصويرا دقيقا فقال : « قال بعض من حضر هذه الوقعة : والله كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف ، فلله درهم لقد احيوا فى ذلك اليوم الإسلامى من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الجديد . فلم تكن الا ساعة واذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين » .

وهكذا انتهت معركة المنصورة هذه بانتصار المسلمين والقضاء على افراد هذه القوة التى كانت بمثابة مقدمة للجيش الصليبى الزاحف صوب المنصورة . وكان بين القتلى روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس . ولم يعلم الملك لويس بأمر هذه الهزيمة التى لحقت بمقدمة قواته ، وقد عبر هو وباقى الجيش مخاضة بحر اشموم وانتقلوا على الضفة الجنوبية التى يرابط فيها المسلمون ، وقد وقع اشتباك عنيف بين الطرفين وكان القتال يدور وجها لوجه بحيث انه

اشتبكت الاجساد واختلطت السيوف بعضها ببعض . وقد احرز المسلمون انتصاراً كبيراً ، وان كان القتلى من كلا الجانبين عددهم كبيراً . وقد انسحب الصليبيون بقيادة الملك لويس وكانوا فى طريقهم إلى معسكرهم شمال بحر اشموم حين جاءته الانباء بان شقيقه كونت ارتوا يقاتل المسلمين داخل المنصورة وحده وانه فى حاجة إلى نجدة سريعة ، فعاد الملك وحول اتجاهه قاصدا المنصورة ولكن فرسان المسلمين لم يمكنوه من ذلك واشتبكوا مع جيشه فى القتال من جديد مما زاد فى كثرة الخسائر فى الارواح فى الجانب الصليبى ولما وجد الملك لويس استحالة ذلك ، عاد بالبقية الباقية من رجاله إلى معسكرهم شمال بحر اشموم ، واثناء عبورهم هذا البحر فى طريق عودتهم طاردهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا كما سقط عدد آخر غرق فى البحر . ورغم هذا كله إلا أن الصليبيين نجحوا فى الاحتفاظ بمعسكر المسلمين جنوبى بحر اشموم وسيطروا عليه .

ثم حدث اشتباك آخر بين الصليبيين والمسلمين فى يوم الجمعة ١١ فبراير ، وقاد المعركة من الجانب الإسلامى بيبرس البندقدارى ومن الجانب الصليبى الملك لويس ، وقد الحق المسلمون بالصليبيين خسائر فادحة فى الأرواح ، ولم يجد الصليبيون طريقه يتخلصون فيها من جثث قتلاهم سوى أن يلقوا بها فى مياه بحر اشموم وفى نهر النيل ، ولكن بعد وقت قصير بدأت الجثث تطفوا على سطح الماء ، فأمر الملك لويس بجمعها ودفنها فى باطن الأرض . وقد ادى كل ذلك إلى تفشى الوباء فى المعسكر الصليبى بشكل خطير حتى كان موتاهم يوميا لا يقلون على العشرين شخصا .

وفى يوم ٢٥ فبراير وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة وبعد أن درس الموقف وعلم بموقع معسكر الصليبيين ، لجأ إلى نفس الخطة التى سبق أن لجأ اليها جده الملك الكامل وكانت سببا فى القضاء على الحملة الصليبية الخامسة ، فأصدر أوامره بان تقطع السفن الاسلامية الاتصال البحرى بين سفن الاسطول الصليبى وقاعدتهم فى دمياط . وقد اتيح لهذه السفن الإسلامية أن تشتبك مع سفن الصليبيين المملوءة بالمؤن والتى كانت فى طريقها من دمياط

إلى معسكر الصليبيين شمال بحر اشموم ، وتمكنت سفن المسلمين أن تستولى على ٥٢ سفينة منها . بينما وقع قرابة الألف صليبى بين قتيل واسير ، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة .

وفى يوم الثلاثاء ١٥ مارس ١٢٥٠ حدث اشتباك آخر بين سفن الفريقين واستولى المسلمون على اثنتين وثلاثين سفينة من السفن الصليبية .

وكان من نتيجة قطع المسلمين الطريق على السفن الصليبية ومنع وصولها بالمؤن إلى المعسكر الصليبى شمالى بحر اشموم ان كاد الصليبيين ان يموتوا جوعا . ويقول جوانفيل « أدت هذه الأمور جميعا إلى أن عم الغلاء المعسكر ، فما وافى عيد الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيها ورأس الغنم بثلاثين والخنزير بثلاثين ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة عشرة دنيه ، وبيع كأس الخمر بعشرة جنيهات » .

ومع ادراك الملك لويس للظروف السيئة التى اضحوا فيها ، بعد أن نفذت مؤونتهم وتحطمت عدتهم ونقص عددهم ، فتح باب المفاوضات مع المسلمين وعرض عليهم تسليمهم دمياط ومغادرة البلاد المصرية مقابل تنازلهم عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين للصليبيين . وكان من الطبيعى أن يرفض المسلمون ذلك العرض لأنه لم يكن يخفى عليهم الموقف السيء الذى امسى فيه الصليبيون .

وهكذا اصبح أمام الصليبيين أحد أمرين ، فأما أن يظلوا فى معسكراتهم شمالى وجنوبى بحر اشموم وفى هذا هلاكهم بعد أن نفذت المؤن وتفشت الامراض بينهم ، بما فيهم الملك لويس نفسه الذى اصيب بالوباء الذى تفشى فى الجيش إلى جانب اصابته بمرض الدوسنتاريا الحادة ، حتى كان يغمى عليه فى الليلة الواحدة عدة مرات . وبين أن يعودوا ادراجهم إلى مدينة دمياط للتحصن بها . وقد اختار لويس الحل الثانى للمشكلة التى امسوا فيها ، واصدر أوامره بانسحاب قواته من معسكر المسلمين الذى احتلوه جنوبى بحر اشموم ولفت نظرهم إلى ضرورة تدمير الجسر الذى يصل بين شمالى وجنوبى بحر اشموم بعد

أن يعبروا عليه . ولكنهم فى عجلتهم وارتباكهم نسوا قطع ذلك الجسر ، فعبر المسلمون عليه وركبوا اقفيتهم واخذوا فى مطاردتهم مكبدين اياهم خسائر فادحة فى الأرواح حتى وصلوا إلى قرية فارسكور هناك كانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة التى حلت بالصليبيين على يد المسلمين ، فقد أوسع المسلمون الصليبيين قتلا وذبحا وأسرا ، وقيل أن خسارة الصليبيين عندفارسكور وحدها بلغت ثلاثين الف رجل ، فى حين لم يستشهد من المسلمين سوى عددا ضئيلا لا يربو على المائة نفس .

وبعد هذه الكارثة التى حلت بالحملة الصليبية ، وبعد أن هلك معظم افراد الفرقة التى كان يقودها الملك لويس ، انضم هذا الملك إلى فرقة عسكرية أخرى من جيشه وانتهى المطاف عند قرية تدعى منية أبى عبد الله . « فوضعوه في منزل وسجوه كأنه ميت ، بعد أن وضعوه فى حجر امرأة من باريس وظنوا انه لن يبقى حياً حتى الليل » .

وذلك على حد تعبير مؤرخ الحملة جوانفيل .

وحين تاب الملك لويس إلى رشده ، ارسل رسولا من قبله إلى أقرب قائد مسلم يخبره برغبة الملك فى ايقاف القتال واقرار الصلح . وفى الحال أحدق المسلمون بالملك لويس ومن كان معه من الفرسان الصليبيين ، الذين ارادوا مقاومة المسلمين دفاعا عن الملك ، ولكن المسلمين قاتلوهم واشتدوا فى قتالهم حتى ابادوهم عن آخرهم ، ثم القوا القبض على لويس واقتادوه اسيرا إلى مدينة المنصورة . حيث انزلوه هو وشقيقيه كونت انجو وكونت بواتييه ، فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان . وقد اكرمهم السلطان توران شاه ورتب للملك من يقوم على خدمته . وقد اشاد المؤرخون الصليبيون الذين اشتركوا فى هذه الحملة بالمعاملة الطيبة التى عومل بها الملك لويس من جانب المسلمين وقد ارسل له السلطان خلعه نفيسه ودعاه لحضور حفل كبير اقامه له ، ولكن لويس رفض الخلعه كما رفض حضور الحفل ظنا منه أن السلطان ما دعاه لهذا الحفل إلا لكى يسخر منه ويمتهن كرامته على مرأى من الجميع .

ولم تمضى اياما قليلة على وقوع الصليبيين فى الأسر حتى طلب السلطان المعظم توران شاه فتح باب المفاوضات مع الملك الفرنسى ، وقد حاول المعظم توران شاه أن يجبرا الملك لويس على الموافقة على تخلى الصليبيين عن بعض ممتلكاتهم فى فلسطين أو الشام ولكن لويس رفض ذلك موضحا انها ليست فى قبضته ولا تخضع لسلطته وبالتالى ليس له الحق فى التنازل عنها ، وفى النهاية تم عقد الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وكانت شروطها تتضمن النصوص التالية :

١ - تسليم مدينة دمياط للمسلمين فدية عن الملك لويس .

٢ - يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط (وهى عملة ذهبية بيزنطية وهذا المبلغ يساوى ٣٦٠,٠٠٠ جنيه مصرى) . فداء عن باقى الاسرى الصليبيين .

٣ - اطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين .

٤ - أن يعمل المسيحيون على حفظ الأمن واقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين .

٥ - اطلاق سراح الاسرى الصليبيين الموجودين فى أسر المسلمين .

٦ - أن يقوم السلطان بالعمل على حماية وحراسة عتاد الصليبيين واثقالهم الموجودة بمدينة دمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية .

٧ - أن يمنح المرضى المسيحيين وغيرهم ممن سيبقون فى دمياط الأمان حتى يبيعون ما يمتلكونه ، إلى أن يرحلوا عن البلاد المصرية .

وقد اقسم الطرفان على احترام شروط هذه الهدنة والمحافظة عليها وعدم الاخلال بها .

وعقب التصديق على هذه الهدنة ، رحل لويس عن الأراضى المصرية متخذا طريقه إلى الشام وعلى هذا النحو انتهت احداث الحملة الصليبية السابعة على

مصر ، بعد أن أصيبت بكوارث وتعرضت لمحن شديدة ، انتهت بوقوع زعيمها وقائدها ملك فرنسا لويس التاسع اسيرا فى يد المسلمين ، ولم تحقق هذه الحملة سوى الفشل الذريع الذى أكد مهارة المسلمين العسكرية وبلاءهم الحسن فى القتال ورد المعتدين عن أراضيهم وتكبيدهم الخسائر الجمه فى المعدات والأرواح على النحو الذى تم عرضه خلال سرد احداث هذه الحملة .

نهاية الدولة الايوبية :

لقد مر بنا كيف حافظت شجر الدر على ملك زوجها الصالح نجم الدين ايوب بعد وفاته وأرسلت في طلب أبنه توران شاه الذى كان مقيماً في حصن كيفا ، الذى أسرع بإتخاذ طريقة إلى مصر ووصل إلى المنصورة ، والاجراءات التى اتخذها وكان لها أثرها فى فشل حملة لويس التاسع على مصر وأسر الملك الفرنسى .

على أن توران شاه لم يحفظ هذا الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التى كانت قد غادرت البلاد بعد وصوله إليها وذهبت إلى بيت المقدس ، فأرسل إليها مهددا متوعدا يطالبها بأموال أبيه ، فأرسلت شجر الدر إلى زعماء المماليك البحرية وأخبرتهم بتهديد توران شاه لها وكيف أنه لم يحفظ جميلها ويطالبها بما ليس عندها . ولم يكن زعماء المماليك البحرية فى حاجة إلى تحريض ، بعد ما أساء إليهم جميعا توران شاه وتنكر لهم ، وقد أساء السيرة وأخذ ينصرف إلى الفساد ، وقد رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحده بعد آخرى حتى تنقطع ويقول « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد من زعماء المماليك البحرية بأسمه .

أضف إلى ذلك أن الفارس أقطاى الذى كانت شجر الدر أرسلته لاحضار توران شاه من حصن كيفا ، قد أخذ وعدا من توران شاه بأن يؤمره ، ولكن توران شاه تنكر لوعده له ، فأضمر له أقطاى الشر .

وفى يوم الاثنين ٢٨ المحرم ٦٤٨ هـ/ ٢ مايو ١٢٥٠م ، مد السماط للمعظم توران شاه فى سرادقه المقام على ضفة النيل فى فارسكور ، وبعد أن تناول الطعام مع بعض أمرائه ذهب إلى خيمته ، فدخل عليه أحد الامراء وهو بيبرس البندقدارى ، وضربه بالسيف ، فتلقى توران شاه الضربة بيده مما تسبب فى قطع بعض اصابعه ، فثار واتهم المماليك البحرية بمحاولة قتله وأقسم على أن يفنيهم ولا يبقى لهم أثرا . عند ذلك اجتمع رأيهم على التخلص منه قبل ان يتخلص هو منهم . وقد ذهب توران شاه إلى برج خشبى نصب له فى فارسكور ليضمد جرحه ، ولكن المماليك أحاطوا بالبرج وطلبوا منه النزول

إليهم فرفض واحتمى بأعلى البرج فرموا البرج بالنار الاغريقية ، وكان البرج مصنوعاً من خشب الشربين والقطن وسرعان مااحترق البرج ، ويقول جوانفيل الذى كان شاهد عيان لكل ماحدث أنه لم ير في حياته قط لهباً أجمل مرآى وأقوى شدة من هذا اللهب .

عند ذلك رمى توران شاه بنفسه من أعلى البرج إلى النيل فرموه بالسهام ولحقوا به فى النيل حيث قتله الفارس أقطاى وأنتزع قلبه من بين ضلوعه ، وحسب رواية جوانفيل ، فأن أقطاى دخل على الملك لويس ويداه ملوثتان بالدماء وقال له : « ترى ماذا تعطينى إذ قتلت عدوك الذى لو عاش لقتلك ؟ » فلم يجبه لويس بأية كلمة ، وربما ارتعد من الخوف ، لئلا يجرى عليه مثل ذلك .

وقد بقيت جثة توران شاه ملقاه على شاطىء النيل ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على دفنها حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد ، فحمل إلى الجانب الآخر من النيل ودفن هناك .

وبمقتل توران شاه فى ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) إنتهت الدولة الايوبية بعد حكم استمر لمدة إحدى وثمانين عاما ، حققت خلال هذه الحقبة الزمنية الكثير من المجد والانتصار على العدو الصليبى الذى جثم على أنفاس الوطن الإسلامى فى الشرق الادنى والذى أضطلعت هذه الدولة بعبء مكافحته والنضال ضده مسجلة بذلك أروع صفحات الجهاد التى حفظها لها التاريخ .

الفصل السابع

مظاهر الحضارة فى العصر الأيوبى

القوة العسكرية .

لقد سبقت الإشارة إلى أن الدولة الأيوبية قد عاصرت اشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفا ، وقد تعرضنا فى الصفحات السابقة لنضال صلاح الدين ضد الصليبيين وكفاح خلفاءه من البيت الايوبى من أجل البقاء واستمرار ملكهم فى مصر ، ضد جحافل القوات الصليبية المغيرة على الديار المصرية فى حملتين يعتبران من أكبر الحملات الصليبية ولا شك فى أن الفضل يعود فى نضال الايوبيين ضد الصليبيين واحرازهم هذه الانتصارات عليهم إلى القوة العسكرية ممثلة فى الجيش والاسطول الذى وقع عليهما عبء هذا النضال الطويل .

وقد أولى صلاح الدين اهتماما كبيرا للقوة العسكرية فى دولته فى مصر والشام ، وبث روح الحرب والجهاد فى نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التى أنشأها فى مصر والشام . وكان مجلسه لا يخلو من ذوى الفضل الذين كانوا يتجاذبون أطراف الفوائد وفضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له . وكان الرجل الذى يرغب فى كسب ود صلاح الدين يرى أن أقصر طريق للوصول لغرضه هو فى حثه على الجهاد أو أن يروى له شيئا من أخبار الجهاد وقد ألفت كتب عديدة لصلاح الدين فى موضوع الجهاد ، ويقول القاضى الفاضل فى هذا الشأن : « أنا من جمع له فى الجهاد كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » .

وكان الجيش يتكون من جنود نظاميين دائمين وآخرين مساعدين يتقاضون اجرا مقابل ما يقدمونه من خدمات عسكرية أى بمعنى آخر جنود مرتزقة ، من التركمان والاكراد والعربان .

وقد أعاد صلاح الدين تنظيم الجيش الأيوبى عدة مرات ، وفى عام ٥٧٧ هـ

(١١٨١ م) بلغ تعداد الجيش الايوبى فى مصر ٨٢٤٠ فارسا ، وبلغت النفقة عليهم ٣,٦٧٠,٦٠٠ دينار .

ولم يظل الجيش طوال العصر الايوبى على حال واحدة من الكثرة العددية ، إذ لم يلبث أن انخفض عدده بعد وفاة صلاح الدين ، ثم ازداد عدده وارتفعت نفقاته ايام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

أما عن نظام الجيش فكان ينقسم إلى « اطلاب » وهو عبارة عن كتيبة يتراوح عدد افرادها بين ٧٠ إلى ٢٠٠ جنديا . وكان على رأس كل طلب منها أمير أى ضابط . وعند السير للقتال كانت توزع الاسلحة والزرد والنفقات على الجنود ، على أن يحضر كل منهم ما يلزمه من كميات المؤن طوال الفترة التى يستغرقها القتال ، وكانت تقام الأسواق خصيصا لذلك .

وكان الفارس الواحد النظامى ، يتقاضى مرتبا يتراوح بين ٧٠٠ ، ١٢٠٠ دينارا ، لذلك كان الاحتفاظ بجيش نظامى دائم يثقل كاهل خزينة الدولة ، فلجأ صلاح الدين إلى تعميم نظام الاقطاع الحربى ، بمعنى أن ينهض امراء الاجناد بما يوزع عليهم من اقطاعات بالانفاق على كتائبهم التى تدخل ضمن الجيش العام زمن الحرب .

كان ذلك فيما يتعلق بالجيش أما عن الاسطول ، فقد تعهده صلاح الدين بالاهتمام والرعاية وأفراد له ديوانا خاصا للانفاق عليه عرف باسم « ديوان الاسطول » وفى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) عين صلاح الدين أخاه العادل رئيسا عاما لديوان الاسطول .

وقد تولى هذا الديوان الانفاق على دور الصناعات المختلفة وامدادها بكل ما تحتاج اليه من اخشاب وآلات .

وخصص صلاح الدين لديوان الاسطول اموالا ضخمة هى متحصلات اقليم الفيوم وحصيلة النطرون التى بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار وايراد ديوان الزكاة وقدره أكثر من خمسين ألف دينار .

وقد استعان صلاح الدين في بناء الاسطول بالاخشاب المحلية الموجودة في مصر ، وكذلك أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في الشام (لبنان) فضلا عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت ، هذا إلى جانب الاستعانة في هذا الأمر بالجمهوريات الايطالية وخاصة البندقية ، فتم عقد معاهدات تجارية من أجل الحصول على الحديد والأخشاب شمع اللازم لصناعة السفن . وكثيرا ما حرم البابوات على هذه الجمهوريات التعامل مع المسلمين وامدادهم بهذه المواد الاساسية ، ولكن ذهبت جهودهم ادراج الرياح ، نظرا للكسب المادي الوفير الذي كان يعود على هذه الجمهوريات من هذه التجارة الرابحة .

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان يسمى المتجر السلطاني ، كان يقوم بشراء مختلف انواع البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والاسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية .

وبفضل هذه الجهود ، استطاع صلاح الدين أن يكون اسطولا قوامه ثمانون قطعه بحرية ، منها ستون من الشواني وهي سفن ضخمة مزودة بالأبراج والقلاع وتحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلا وتستعمل هذه السفن في حالات الهجوم والدفاع .

ومن السفن التي استخدمت في هذا الاسطول ، الطرادات ، ومفردها طرادة وهي سفينة سريعة الحركة تحمل الخيل .

وقد قسم صلاح الدين هذا الاسطول إلى قسمين قسم كان يقوم بالهجوم ضد العدو ، والقسم الآخر كانت مهمته حماية شواطىء مصر والشام ضد هجمات الأعداء .

هذا وقد بذل صلاح الدين جهده في سبيل تقوية اجهزة الدفاع وتحصين الثغور المصرية المطلة على البحر مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس ، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها .

وقد حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الاسطول لتحسين أحوالهم وقرر بأن يكون دينار الاسطول $\frac{3}{4}$ الدينار العام بعد أن كان $\frac{5}{8}$ ذلك الدينار ، أى بزيادة قدرها عشرين فى المائة تقريبا ، كذلك استخدم الملاحين من المغاربة فى اساطيله نظرا لمهارتهم الكبيرة فى ميدان القتال البحرى .

وقد كان من نتيجة اهتمام صلاح الدين بالاسطول أن تمكن من احراز الانتصارات البحرية على الصليبيين على النحو الذى جرى ذكره فيما سبق ، مثل مطاردة الاسطول المصرى بقيادة حسام الدين بن لؤلؤ سفن ارناط وافساده لمشروعه الخاص بغزو الحجاز ، وكذلك الدور الذى لعبه الاسطول اثناء حصار الصليبيين لعكا .

على أنه بعد وفاة صلاح الدين لم يهتم خلفاؤه من البيت الأيوبى بشأن الاسطول ، ولذلك فقد اصابه الضعف والاهمال ، ويصور المؤرخ المقريزى ما صار اليه حال الاسطول والعاملين به فيقول :

« فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ، استمر الحال فى الاسطول قليلا ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة اليه ، فاذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال وقبض عليهم فى الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الايام بغير شيء كما بفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجل ، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى ، غضب غضبا شديداً بعد ما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى اعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم » .

على انه عندما تعرضت مصر للغزو من جانب الصليبيين عاد الايوبيون من جديد للاهتمام بالاسطول ، وظهر ذلك بوضوح فى الوصية الشهيرة التى كتبها السلطان الايوبى الصالح نجم الدين ايوب لابنه المعظم توران شاه ، والتى جاء بها « .. فالاسطول أحد جناحى الإسلام ، فينبغى رجاله أن يكونوا شباعا ، ورجال الاسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبة ، جاؤا من كل فج عميق .. » .

الحياة الدينية :

تجدر الإشارة هنا إلى أن الدولة الأيوبية قد خلفت الدولة الفاطمية الشيعية ، فلما اصبحت البلاد في يد صلاح الدين الايوبي ، حاول جاهدا القضاء على المذهب الشيعي واقامة المذهب السني ، وقد لجأ صلاح الدين اثناء ذلك إلى القتل والعنف ، كما لجأ ايضا إلى الاساليب السلمية والسياسية وانشاء المدارس ، وقد مر بنا كيف أن الشيعة بمصر لم يستسلموا لذلك وقاموا بعدة فتن وثورات واستعانوا بالقوى الخارجية لمساعدتهم ، غير أن صلاح الدين نجح في القضاء على هذه الفتن وعلى اتباع المذهب الشيعي .

وقد اخذت ظاهرة التصوف تزداد وضوحا في عصر الايوبيين وأكثر الايوبيون من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخنقاوات وكان يخصص للصوفية بها في كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، كما خصص لهم الحمامات .

والمؤرخ المقريزى أيضا يمدنا بصورة عن حياة أولئك الصوفية فيقول أن الناس اعتادوا أن يشاهدوا صوفية خانقاة سعيد السعداء وهي أول دار للصوفية بناها السلطان صلاح الدين بالقاهرة ، فكان هؤلاء الصوفية يخرجون من دارهم إلى جامع الحاكم لصلاة الجمعة ، في موكب جميل ، ويؤدون فريضة الصلاة في موضع أعد خصيصا لهم ، ثم يدعون للسلطان صلاح الدين بعد تأديتهم للصلاة ، ويعودون إلى الخانقاة بنظام .

النظام الإدارى :

لقد أصبح صلاح الدين سيد البلاد المصرية وحاكمها الأوحد ، وكان على رأس الجهاز الإدارى للبلاد . ولما كان كثير التغيب عن مصر بسبب حروبه وجهاده ضد الأعداء ، لذلك فقد استحدث صلاح الدين وظيفة « نائب السلطنة» ، وهو الشخص الذى ينوب عن السلطان أثناء غيابه ، واستمرت هذه الوظيفة قائمة في عصرى الايوبيين والمماليك .

والثابت تاريخيا أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسميا ، وإن

كان خلفاؤه قد تمسكوا به حتى نهاية العصر الأيوبى ، وكذلك تمسك به من حكم البلاد من المماليك .

وكان هناك عدة وظائف هامة منها وظيفة (الحاجب) الذى يقوم بادخال الناس على السلطان ، ووظيفة (الأستادار) الذى ينظر فى إدارة البيوت السلطانية ، ووظيفة (الداودار) الذى يقوم بإبلاغ الرسائل للسلطان والحصول على توقيعه على المراسيم ، ووظيفة (ناظر الخاص) وهو المكلف برعاية شئون السلطان المالية .

وكان هناك مجموعة كبيرة من الدواوين ، منها ديوان الانشا ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش ، وغيرها ، وكان لكل ديوان ناظر وميزانية خاصة وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره .

نظام الزراعة والاقطاع :

كان النظام المتبع فى الزراعة فى ذلك الوقت هو المعروف برى الحياض بمعنى أن تقسم الأرض إلى حياض كبيرة تغمرها مياه النيل وقت الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه وتبذر البذور . والواقع أن هذه الطريقة كانت السبب فيما أصاب البلاد من ارتفاع فى أسعار المحاصيل الزراعية ، وفى بعض الأحيان المعاناه ، لأن اتباع هذه الطريقة جعلت البلاد تعيش تحت رحمة الفيضان ، فاذا جاء طبيعيا لم تحدث مشكلة ما ، أما المشكلة الكبرى فكانت حين يأت الفيضان منخفضا مما لا يساعد على غمر الأحواض بمياهه وبالتالى تعطل الزراعة ، وتنتشر المجاعات بالبلاد ، مثلما حدث فى عصر الفاطميين ولعل أشهر المجاعات التى حدثت آنذاك تلك التى حدثت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، والتى تسببت فى خراب البلاد ، وفرار معظم أهلها إلى الشام والمغرب .

ويتحدث المؤرخون أيضا عن المجاعة التى حدثت فى عهد السلطان العادل الأيوبى فى عام ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) ، إذ هبط مستوى الفيضان وأشتد العلاء

بمصر مما أدى إلى فرار الناس إلى المغرب واليمن والحجاز . ويسوق أبو المحاسن ابن تغرى بردى نصا عن الأوضاع فى مصر خلال تلك الأزمة وكيف أن الناس كانت تأكل لحوم أبنائهم بدافع الجوع فيذبح الرجل ولده وتساعده امه على طبخه وشيه .

ولا شك أن فى ذلك الكثير من المبالغة وربما الخيال ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شدة الأزمة وقسوتها على الناس .

وقد ظلت البلاد تحت رحمة الفيضان حتى تم تغيير نظام رى الحياض إلى الرى الدائم الذى استخدمته مصر لأول مرة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

والجدير بالذكر أن الأيوبيين قد أخذوا بنظام الاقطاع الحربى الذى عرفه الغرب الأوربى فى العصور الوسطى ، ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة إلى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول ، مما يتطلب أموالا ونفقات تعجز مواردهم المالية عن تحملها ، فكانوا يعمدون إلى توزيع الأراضى الزراعية فى صورة اقطاعات على الأمراء وكبار رجال الجيش ، مقابل ما يقدمونه من خدمات عسكرية . ولم يكن هذا الاقطاع وراثيا ، حقيقة أن الأرض يسهل تقسيمها بين الورثة ، ولكن الاقطاع كان أساسا وظيفة والوظيفة لا تقسم . وهكذا ظل المقطع يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط عقد الاقطاع .

وقد تضمن هذا العقد خدمات يؤديها المقطع ، منها ما هو مالى مثل ضرائب الزكاة وغيرها ، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية ، مثل رعاية شئون الأمن فى الاقطاع والاهتمام بالزراعة وصيانة الجسور ، ومنها ما هو عسكرى وهو الأساس بالطبع ، فكان على المقطع أن يقتنى العدد المقرر عليه من الجند الذين يدفع لهم مرتباتهم نقدا أو عن طريق منحهم جزاء من أقطاعه .

وقد سارت الدولة الأيوبية من بدايتها حتى نهايتها على هذا النظام الاقطاعى ، فقام صلاح الدين فى عام ٥٧٧ هـ ثم فى سنة ٥٨١ هـ (١٨٨٠م ، ١١٨٥م) بتوزيع الاقطاعات على الأجناد ، كما قسم دولته بين

ابنائه وأخوته على أسس اقطاعية ، كذلك فعل شقيقه الملك العادل ، وأيضا الصالح نجم الدين أيوب الذى وزع الاقطاعات الكبيرة على أهل بيته ومماليكه والخوارزمية الذين قدموا له الكثير من الخدمات العسكرية .

التعليم والحياه الفكرية :

لقد أكثر الأيوبيون من بناء المدارس وكان ذلك فى حد ذاته مظهرا قويا لرقى الحياة الفكرية فى ذلك العصر . وقد بدأ صلاح الدين ببناء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، هى المدرسة الناصرية ، والمدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين .

وبعد سقوط الخلافة الفاطمية انشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى وبذلك صار عدد المدارس التى أنشأها بمصر خمس ، بخلاف المدارس التى أنشأها بالقدس ودمشق . ومن اشهر المدارس التى انشأها السلاطين الايوبيين بعد صلاح الدين ، المدرسة الكاملية التى انشأها السلطان الكامل ، والمدرسة الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب الذى بناها فى عام ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) .

وكانت المدارس فى ذلك العصر اشبه بالجامعات ، فهى كليات للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وان كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة . وفى البداية كانت المدرسة مركزا للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ، ثم تطورت المدارس فصار يدرس بها النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية .

أما عن نظام التدريس بهذه المدارس فكان يقوم على أساس اختيار مدرس يكون من كبار العلماء فى عصره واوسعهم علما وابعدهم صيتاً لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة واهميتها ، وكان يساعد المدرس معيد مهمته ان يعيد على الطلبة ما القاه عليهم المدرس ، ويرجع اليه الطلبة ليشرح لهم ما صعب عليهم فهمه من العلم ، واعتمد التدريس عادة على الالقاء والتلقين

والاملاء ، وبعض المناقشات العلمية التى كانت تدور بين المدرس وطلابه .

ومن الأمور التى حرص عليها الايوبيون ، هو انشاء المكتبات الضخمة التى يرجع اليها المدرسون والمعيدون والطلبة ليستزيدوا منها العلم والتحصيل . هذا ولم تقتصر المكتبات فى ذلك العصر على المدارس فقط وانما وجدت كذلك بالجوامع ، فضلا عن المكتبات الخاصة التى اقتناها محبى العلم والبحث من رجال الدولة .

وكان للمكتبات عدد من الموظفين مهمتهم تنظيم الكتب والمحافظة عليها ، وخدمة المترددين على المكتبة ، وأهم موظفى المكتبة هم الخازن (أى امين المكتبة) والنساخ ، والمجلدون والمناولون .

وإلى جانب المدارس ، وجدت فى العصر الايوبى الكتاتيب ، لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد لجأ السلاطين الايوبيين إلى وقف الاوقاف على المدارس والكتاتيب سواء كانت هذه الأوقاف أراضى زراعية أو حوانيت وافران وحمامات .

وقد اشتهر سلاطين الايوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع اليهم ويشاركهم فى ابحاثهم ، وقد نحا نحوه فى حب العلم حلفاءه من السلاطين وخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقريزى : « وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوى ، .. وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن اجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم .. فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه » .

الحياة الاجتماعية :

المعروف كما سبقت الإشارة إلى ذلك مرارا أن الدولة الأيوبية عاصرت فترة من أشد الفترات صعوبة على المسلمين ، بعد أن اتى الصليبيون الغربيون

واحتلوا أراضى المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى وهددوا البلاد الإسلامية وخاصة مصر أكثر من مرة ، لذلك فان السلاطين الايوبيون وخاصة صلاح الدين لم يبالغ فى الاحتفالات ولم ينفق عليها ببذخ واسراف كما كان يفعل الفاطميين أو المماليك . لأن الجهاد والنفقات التى استلزمها لم تترك لصلاح الدين لا من الوقت ولا من المال ما ينفقه فى اقامة الحفلات والانفاق عليها ويكفى أن نعلم فى هذا المجال أنه عند وفاة صلاح الدين وجدوا أن كل ما فى خزانته من المال ما يتعدى سبعة واربعين درهما من الفضة وجراما واحدا من الذهب ، لأن الجهاد فى سبيل الله قد استنفذ كل دينار فى خزانته .

وهكذا اقتصد الايوبيون فى الحفلات والغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، فى حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى مثل ذلك يوم عاشوراء ، فقد كان هذا اليوم يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الحوانيت والاسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب .

كذلك فقد اهتم الأيوبيون ببناء الحمامات المتقنة الصنع . والتى امتازت بارضها المكسوة بالرخام الجميل ، والاحواض الواسعة التى يجرى فيها الماء الساخن والبارد ومقاصير بأبواب للمستحمين ، مما دفع الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى زار القاهرة فى العصر الايوبى إلى القول بأنه لم يرى مثلها فى كل ما زاره من البلاد .

كذلك افاض الرحالة ابن جبير فى وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يفدون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم .. » .

أما ابناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره اثناء مرورهم بمصر فى طريقهم إلى الحج .

هذا وقد بلغت مدن الصعيد ايضا درجة كبيرة من الرقى فى ذلك العصر ، فذكر ابن جبير الذى زار بعض مدنها ، انها كانت ممتازة « حسنا ونظافة واتقان وضنع » .

وهكذا نهض الايوبيون[1] بالبلاد نهضة مباركة كان لها اثرها فيما احرزوه من انتصارات على الأعداء .

---

(١) للمزيد عن موضوع مظاهر الحضارة فى عصر الايوبيين راجع

سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١١٦ - ١٣٠

المصـــادر والمراجع

أولاً : المصـادر العربية

– ابن ابى الفضائل : مفضل
النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، جزءان باريس ،١٩١٢ .

– ابن الاثير : عز الدين على بن محمد الجزرى
(أ) التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل حققه ونشره عبد القادر احمد طليمات « القاهرة » ، ١٩٦٣
(ب) الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ، القاهرة ١٣٥٧ هـ

– ابن اياس : ابو البركات محمد بن احمد
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٣ أجزاء بولاق ، ١٣١١ – ١٣١٢ هـ .

– ابن ايبك : الدرر المطلوب في اخبار بنى أيوب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .

– ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، باريس ١٩٢٢

– ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسى
رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٤٩

– ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء بولاق ، ١٢٨٤ هـ

– ابن خلكان : شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الشافعى ، وفيات

الأعيان وانباء ابناء الزمان ، نشره محي الدين عبد الحميد ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي
الانتصار بواسطة عقد الامصار ، بولاق ١٨٩٣ م .
- ابن شداد : بهاء الدين يوسف
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، نشر د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ابن شداد : محمد
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، جزءان ، نشر سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ .
- ابن واصل : جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم الشافعي
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، نشر د. جمال الشيال
- ابن مماتي : الأسعد
قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال عطية القاهرة ١٩٤٣
- ابن منقذ : اسامة
كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتي
- ابو شامه : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين
(أ) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
(ب) الذيل على الروضتين ، نشر عزت العطار الحسيني الدمشقي ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه
المختصر في اخبار البشر ، ٤ أجزاء القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

- **ابو المحاسن** : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى

(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣

(ب) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى

محفوظ بدار الكتب المصرية ، ٣ أجزاء .

- **المقريزى** : تقى الدين احمد بن على .

(أ) [illegible]لمام باخبار من بأرض [illegible] من ملوك الاسلام ، ليدن ١٧٩٠ .

(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك

حققه ونشره محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

(جـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ .

- **النويرى** : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب

نهاية الارب في فنون الادب ، اجزاء من ٢٥ - ٣٠

مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

- **النويرى** : محمد بن قاسم الاسكندرى

الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في واقعة الاسكندرية ، مخطوطة في جزءين بدار الكتب المصرية .

- **ابن واصل** : جمال الدين محمد بن سالم

مفرج الكروب في اخبار بنى ايوب

حققه ونشره جمال الشيال في ثلاثة أجزاء

- **ابن الوردى** : ابو جعفر زين الدين عمر

تتمة المختصر في اخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن الوردى ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ

- **ياقــوت** : شهاب الدين ابو عبد الله الحموى

معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ١٩٥٥ .

– يحيى بن سعيد
الانطاكي : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان ،
بيروت ، ١٩٠٩ .

ثانياً — المراجع العربية

– احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : دكتوران
تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ .
– جمال الدين الشيال : دكتور
مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .
– جوزيف نسيم يوسف : دكتور
(أ) العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٦٩ .
(ب) تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ .
(جـ) تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٨٤ .
– حسن ابراهيم حسن : دكتور
(أ) تاريخ الاسلام السياسى ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٥
(ب) تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
حسن حبشى : دكتور
(أ) الحرب الصليبية ، الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
(ب) نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
– حسنين محمد ربيع : دكتور
النظم المالية في مصر زمن الايوبيين .
– سعيد عبد الفتاح عاشور : دكتور
(أ) اوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ – ١٩٦٢ .
(ب) قبرس والحروب الصليبية ، ١٩٥٧

(جـ) الحركة الصليبية ، جزءان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١
(د) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك . بيروت ، ١٩٧٢ .

– **محمد مصطفى زيادة** : دكتور
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ، ١٩٦١ .

– **محمد جمال الدين سرور** : دكتور
مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٠

– **محمود سعيد عمران** : دكتور
الحملة الصليبية الخامسة ، حملة جان دى برين على مصر ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .

ثالثاً – المصادر والمراجع الأجنبية

- **Besant & Palmer** : Jerusalem, The City of Herod and Salhdin, London 1899.
- **Brehier (L.)** : L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Gosades, Paris 1928.
  : Vie et Mort de Byzànce, Paris, 1947.
- **Cahen (C.)** : La Syżie du Norde à L'E Poque des Croisades, paris 1940.
- **Cambridge Medieval History Cambridge 1957,**
- **Chalandon (F.)** : Histoire de la Première croisade, paris, 1900)
  : Les Comnenes.
- **Gibbon(E.)** : Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1957.
- **Grousset (R.)** : Histoire des croisades et du Royaume France de Jerusalem, (3 Vols) Paris 1943 - 46.
- **Iorga (N.)** : Histoire de croisades Paris, 1924.
  : L'Armenie Cilicienne
- **Joinville** : Histoire de Saint louis ed.de wailly, Paris, 1874.
- **La Monte (J.)** : Feudal Monarchy in the lalin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932.
- **Laurent (J.)** : L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Paris, 1919.
- **Mas latrie** : Histoire de L'ile de Chypre, (3 Vols), Paris 1851.
- **Michaud (J.F.)** : Histoire de croisades 5 Vols, Paris, 1817-22.
- **Munro (D.C.)** : The Kingdomm of the Grusades .
  New York, 1936.
- **Norgate** : Richard the Lion Heart London 1924.
- **Ostrogorsky (G.)** : History of the Byzautine State, Oxford 1956.
- **Richard** : Le Royaume latin de Jerusalem, Paris, 1953.
- **Schlumberger (G.)** : Campagnes du Rai Amaury de Jerusalem in E gypte, Paris, 1906.
- **Schumberger (G.)** : La Numismatique de L'orient Latin, Paris, 1878.
- **Schlumberger (G.)** : Recits de Byzance et des croisades, 2 Vols, Paris 1917 - 22.
- **Schlumberger (G.)** : Renauld de chatillon. Paris, 1898.